



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجلفة
كلية الآداب واللغات والفنون



مطبوعة دروس خاصة بمقياس :

دروس في الأدب الصوفي

" دروس موجهة إلى طلبة السنة الثالثة ليسانس " تخصص دراسات نقدية " "
الأسداسي: الأول "

إعداد الدكتور: فضة الميسوم

السنة الجامعة : 2021.. / 2022..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عني الباحثون والدارسون على مرّ العصور بالتصوّف وبأدبه منذ ظهوره إلى أيامنا هذه . وكانوا يختلفون في دراساتهم من معظّم للصوفية ويكاد يكون مقدّسا لكل ما يصدر عنهم ، بل منهم من يتبرك بأقوالهم ، ومن معارض لهم ولكثير من آرائهم إلى حدّ الخصومة ، بل يذهب إلى اتّهامهم بالزندقة والخروج عن الدين ، وينسب فكرهم وكلامهم إلى ملل أخرى وفلسفات غريبة عن العقيدة الإسلامية التي تناقلوها عن السلف. ولهذا فإنّ الأدب الصّوفي اتّجه اتّجاهاً فكرياً وعقدياً متميّزاً ، وكذلك كان أدبه متميّزاً فنياً عن غيره وإن وُظّف بعض أغراض الشّعر العربي في التعبير عن نفسه . ولهذا أيضا ظهر هذا الاختلاف والتباين لدى كثير من الدارسين سواء أكانوا من الغرب (المستشرقين) أم من المسلمين .

وهذه مجموعة من الدروس التي تصب في هذا المصب ، وهي موافقة للبرنامج المقرّر في أقسام اللغة العربية بالجامعات الجزائرية ، الموجّه لطلبة السنة الثالثة من مرحلة الليسانس . وتتضمن الحديث عن الأدب الصّوفي عامة من حيث النشأة والقضايا التي تناولها ، ومن حيث أنواعه وتأثر أدباء العصر الحديث به ، كما تتناول التّرجمة لبعض أعلامه . أرجو أن يفيد منها طلبتنا في تحصيلهم العلمي .

حاولت من خلال هذه الدّروس نقل آرائهم كما هي والتي وردت في أدبهم أو نقلت عنهم ، أو كما علّق عليها بعض المخالفين لهم . كما نقلت ترجمتهم من كتب السيّر التي

عنيت بالترجمة للصوفية أو من غيرها . ونقل الترجمة من مظاهرها وبعباراتها تلزم في الغالب صاحبها ولا تدل على الاقتناع بها . فأحيانا يبالغ المترجمون في وصف المترجم له حتى يبلغ درجة التعظيم ، بينما يصفهم الخصوم بخلاف ذلك ، ويتهمونهم بالزندقة . كما جمعت بعض المصطلحات الصوفية التي تعدّ من المفاتيح في فهم أدبهم من المعاجم المتخصصة في ذلك . واقتصر على بعضها فقط ممّا بدا لي مهما .

وقبل الخوض في مضمون الدروس ، وددت الوقوف على عتبة العنوان وقفة وجيزة نتبين من خلالها معنى ما سندرسه . فعنوانها متكوّن من كلمتين؛ الأدب والصوفي . سنحاول الوقوف على معناهما وتطوّرها عبر العصور واختلاف البيئات .

مفهوم الأدب

إنّ كلمة الأدب كلمة تطوّر معناها وتغيّر تعريفها ومدلولها من عصر إلى آخر . ففي العصر الجاهلي وردت مادة اللفظة دالّة على الدعوة إلى الطعام وسمّي الداعي الأدب وفي ذلك يقول طرفة بن العبد⁽¹⁾:

نحنُ في المَشْتَاةِ نُدعو الجَفَلَى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرُ

فهو يفاخر بأنهم في الشتاء حين تشتد الشدائد بالناس يعدّون الطعام، ويدعون الناس عامة له دون أن يميّز الداعي بين المدعويين أو يتخيّرهم. ولما كانت بعثة النبي ﷺ استعملها استعمالاً آخر شأنها شأن كثير من مفردات العربية. ومن ذلك قوله فيما يروى عنه مع اختلاف في ضعفه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»⁽²⁾ وقيل إنّ مناسبة القول أنّ أبا بكر قال: يا رسول الله ! لقد طُفّت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ فقال الذي قال. فدلّ الحديث على معنى التّعليم أي أنّ ربّه علّمه فأحسن تعليمه. ويستشهد بعض أصحاب الرقائق بهذا الحديث على التّهذيب الروحي والتّفسي ، من ذلك قول المناوي: " أدبني ربي أي علّمني رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة ، والأدب ما يحصل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة "⁽³⁾.

(1) ديوان طرفة بن العبد ، اعتنى به حمدو طماس ، ط 1 ، دار المعرفة ، بيروت ، 1424هـ/2003م ، ص:51

(2) علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفى سنة 975هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعالااعتنى به إسحاق الطيبي ، ط 2 ، بيت الأفكار ، الأردن 2005م ، ص 1476 ، حديث رقم 32024 - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي 849 - 911 هـ ، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، ط 2 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1425هـ/2004م ، ص:25 ، حديث رقم 310 .

(3) محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام ، ط 2 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1391هـ/1972م ، ص: 224 ، حديث رقم 310 .

وفي عهد بني أمية أطلقت لفظة أدب على كل ماعدا العلوم الشرعية ، أي هو كل شيء أنتجه عقل الإنسان. ولا شك أنّ الأدب هو مُنتج يؤثّر في النفس سواء أكان شعراً أم نثراً ويكون المقصود منه التعبير عنها.

أمّا في العصر العباسي فإنّ صفة المؤدّب صارت تطلق على المعلّم خاصة من كانوا يعلّمون أبناء الخلفاء والقادة . مع بقاء المعنى التّهذيبي للكلمة . فإن قيل فلان على قدر من الأدب أي مهذب . وكان الشّعْر والنثر ممّا يلقّنه المؤدّبون ويعلمونه لمن يؤدّبونهم .

أمّا في العصر الحديث فقد ظهرت تعريفات كثيرة يمكن إجمال معانيها في هذين القولين : الأدب هو فنّ الإبانة عمّا في النفس، أو هو التعبير الجميل عمّا في النفس . فهو بهذا المعنى استخدام للغة استخداما جديدا مبتكرا غير الاستخدام الذي تُستخدم به في أصل وضعها لتشكّل تعبيراً جميلاً فيه الخيال المبدع الذي يميّز كلام صاحبه عن غيره . والأدب بصورة عامة معبّر عن بيئته وأهله. ولا يختلف الدارسون في أنّ الصّوفية كان لهم أدبهم الخاص ، المعبّر عن اتّجاهاتهم ، والناقل لفكرهم ، والمصوّر لأحوالهم .

مفهوم الصّوفي

أختلف في أصل الكلمة واشتقاقاتها وذهبوا في تحديد مدلولها مذاهب لا تعدّ . وسبب ذلك إرجاعهم معناها إلى الذوق . فالتصوّف عندهم ذوق ولكل متصوّف ذوقه وبالتالي لا يمكن حصر معناها في عدد معيّن من التّعريفات . وقد أحصوا ما يزيد عن ألفي تعريف للتصوّف كلّها تدور حول ثلاثة محاور . التصوّف بالمعنى التعبدية ، التصوّف بالمعنى الأخلاقي، التصوّف بالمعنى العرفاني . والصّوفية (التصوّف) كما يقول أهلها عنها هي

درجة الإحسان التي أشار إليها النبي ﷺ في الحديث المشهور عن الإسلام والإيمان

والإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽¹⁾ . وأرجع علماء

الصّوفية والباحثون في التصوّف أصل الكلمة - التي تطلق على الصفة والموصوف معاً -

إلى عدّة مصادر أهمّ :

* التصوف نسبة إلى أهل الصّفة الذين لم يكن لهم أهلون، وعرفوا بملازمتهم المسجد،

وبتفرّغهم للعبادة بالمسجد في عهد رسول الله ﷺ .

* نسبة إلى الصّف الأول في الصلاة وذلك لأنّ الصوفية يتقدّمون غيرهم في العبادة.

* نسبة إلى الصّفاء والصّفو؛ لأنّ ما يسعى إليه المتصوّف هو تطهير نفسه من كلّ ما

يلحق بها من أدران، ومن كلّ أمراض الباطن ، أي يقوم بعملية التّخلية وبعدها التّحلية كما

هو معروف عند هذه الطائفة من الصّوفية .

* نسبة إلى صوفيا التي تعني باليونانية الحكمة . ومما يقول به الصّوفية أنّهم حين يبلغون

درجة معينة ومقاما معلوما يؤتون الحكمة .

(1) هذا جزء من حديث تحدث فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان فجعل الإحسان أعلاها ، وفيه كما ورد في كتب الحديث ومنها صحيح البخاري : حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ عَنْ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي حَيَّانَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمُفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأَحَدُّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَادَتْ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْخَفَاءُ الْعُرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي حَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } ثُمَّ انصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ رُدُّوا عَلَيَّ فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جَنِينٌ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»

ينظر : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور

رسول الله وسننه وأيامه ، تح. محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط1 ، دار طوق النجاة ، 1422هـ ، ج3 ص243

* نسبة إلى الصّوف الذي كانت طائفة من الصّوفية يلبسونه تعبيراً منهم عن الزهد في مباحج الحياة والاكتفاء منها بالخشن ، وإن كان القشيري ينفي اختصاص الصّوفية بلبسهم له. وقد ذكر بعض هذه النسب في رسالته واستبعدها لأنها لا تستقيم لغة (1). ومما قيل فيه شعراً ،

ولعلّه من التّعريفات الجامعة ، قول أبي الفتح (2) :

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَظَنُّوه مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فِتْنَى صَافَى فَصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي

وجمع أبو عليّ الروذباري ، وهو أحد أعلام الصوفية ، معاني التّصوف حين سئل عن الصّوفي فقال: « من لبس الصّوف على الصّفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدّنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى » (3) وقد حوت الرسالة وكتاب التّعريف لمذهب أهل التّصوّف تعريفات كثيرة يمكن الرجوع إليهما للاستزادة منهما. ونورد بعضها على سبيل التّمثيل:

قال ذو النّون المصري : « الصّوفي من لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سلب ».

قال الجريري: « التّصوّف الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني »

قال بشر الحافي: « الصّوفي من صفا لله قلبه »

(1) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري [ت: 465هـ] ، الرسالة القشيرية ، تح. خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1422هـ/2001م ، ص311 وما بعده .

(2) ديوان أبي الفتح البستي ، تح درية الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1410هـ/1989م ، ص:134

(3) أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي [ت: 380هـ] ، التّعريف لمذهب أهل التّصوّف ، ط2، دار الخانجي ، القاهرة ، 1415هـ/1994م ، ص 11 .

قال الجنيد: « التصوّف بيت والشريعة بابه »

وقال أيضا : « التصوّف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة »

قال ذو النون المصري: أهل التصوّف هم قوم آثروا الله عز وجلّ على كل شيء فآثرهم الله

على كل شيء »

قال معروف الكرخي: « التصوّف الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق »

قال أبو حمزة : « علامة الصّوفي الصّادق أن يفنقر بعد الغنى، ويذل بعد العزّ ، ويخفى

بعد الشّهرة ، وعلامة الصّوفي الكاذب أن يستغنى بعد الفقر، ويعز بعد الذل، ويشتهر بعد

الخفاء.»

وعلى الرغم من تعدّد معاني كلمة التصوّف إلا أنه يمكن أن ندرك من مجموع هذه

الأقوال معنى يقربنا بصورة عامة من مفهومه وحقيقته . فهو تصفية الباطن والاتّصال بالله

في كل وقت أي مراقبة الله تعالى التي هي درجة الإحسان، والزهد فيما في أيدي النّاس،

والتخلّي عن الرذائل والتحلّي بالفضائل، والإقبال على الله بإخلاص. وهو محبة الله والفناء

فيه كما يقول آخرون .

نشأة التصوّف

قال ابن خلدون في المقدمة: " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصّ المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.⁽¹⁾

ويستخلص من كلام ابن خلدون أنّ التصوّف كسلوك كان موجودا في حياة الصحابة رضي الله عنهم لكن كتسمية وكعلم فهما حادثان . وهناك من يشبههما بالعلوم والفنون التي ظهرت بعد صدر الإسلام كالنحو مثلا الذي كان يجري على السنة العرب ولم تكن له قواعد تحفظ حتى ظهر اللحن فاضطروا لوضع علم النحو تقويما للألسن وحفاظا على اللغة وفصاحتها.

وإذا تتبعنا نشأة التصوّف وجدناه ظهر في ظروف معينة نحاول ذكر أهمها :

إنّ التحوّلات الحادثة بداية من القرن الثاني للهجرة خاصّة في العصر العباسي. حيث توسّعت الفتوحات الإسلامية حتّى شملت مغرب الأرض ومشرقها . ويكفي للتدليل على ذلك ما قاله هارون الرشيد وهو ينظر إلى غيمة " أمطري أنّي شئت فإنّ خراجك سيأتيني " وهو دليل على اتّساع رقعة العالم الإسلامي . وبهذا الاتّساع دخلت شعوب كثيرة الإسلام ،

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، منشورات علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص:381

وامتزجت ببعضها بكل ما تحمله من عقائد وأفكار وتقاليد .. ولم يكونوا على مستوى واحد من الإسلام والإيمان. فمنهم من استطاع أن يتخلص من ماضيه ويلتزم بالدين الجديد عقيدة وشريعة ، ومنهم من بقيت فيه رواسب من هذا الماضي بما فيه الديانة التي كان عليها.

كما أنّ فتح هذه الأمصار أدّى إلى زيادة مداخيل الدولة حينئذ ، وبالتالي إلى ظهور الترف في حياة كثير من الناس. وازدهرت العلوم والمعارف خاصّة بعد حركة الجمع والتدوين ثمّ حركة التّأليف والترجمة ... ونتج عن كل هذا :

* ظهور مجتمع امتزجت فيه مظاهر الحياة ، وانتقل العرب من حياة البداوة البسيطة إلى حياة المدن المعقدة .

* تطور الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية ، وأدّى هذا إلى بروز تيارات فكرية جديدة بعضها لم يكن له من الإسلام سوى التسمية . وبلغ أحيانا بهم الترف كما يقال في هذا المجال ، فصاروا يعنون بالبحث في كل شيء ، وينظم الشعر في كل صغيرة وكبيرة .

* انتشار الترف في حياة النّاس فبنيت القصور ، وامتلكت الجوّاري واستعمل الخدم والحشم.

* تأسّست أماكن للهو والمجون وفتحت الخمارات وأعدّت أماكن للقيّات ...

وفي هذه الأجواء تمايزت في المجتمع العباسي تيارت متناقضة ، أو لنقل الشّيء وضده. وقد غالى بعضهم في الانغماس في ملذات الحياة ، والركون إلى المجون واللهو،

والمجاهرة به، واتخاذ أماكن مكشوفة لذلك ، بل منهم من كان يجد اللذة في هذه المجاهرة ،
ولا يكتفي بإتيانه سرا كأبي نؤاس الذي يقول (1):

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجَهْرُ

وَبُخٍ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

وفئة أخرى في الطرف المقابل زهدت في هذه المذات والتزمت بالطاعات ، وحرصت
على أن لا يجرفها هذا التيار الهادر . ثم ما لبثت هذه الفئة أن انتقلت من حال إلى حال .
ولهذا يمكننا القول بأنّ التصوّف جاء في مرحلة تالية لهذه المرحلة . ويمكننا تقسيم نشأة
التصوّف وبلوغه ما بلغ في هيئته الأخيرة إلى مراحل هي :

أ- مرحلة الزهد: (التّزهيد في الدنيا ومباهجها)

وفيهما ظهرت مجموعة من الزهّاد عرفوا بالعلم والتّقوى والورع ، كما نقل عنهم الحرص
على عبادة الله والتزام تعاليم دينه ، ولم يراعوا في ذلك لومة لائم . قدوتهم رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - والصّحابة رضوان الله عليهم . فقد آثروا الزّهد والتّقشّف في الحياة الدنيا،
وغلب عليهم الورع ومالوا إلى التّعبد من أجل نيل مرضاة الله في هذا العصر الذي بدأت
فيه ملامح الترف في الحياة والميل إلى اللهو والتلذذ بمباهج الدنيا وملذاتها . وكان رواد
هذه المرحلة من التّابعين في القرن الثاني للهجرة . ومن أشهر هؤلاء الحسن البصري الذي
قيل عنه : " هذا الرجل الذي يشبه كلامه كلام النبوة " ، وعبد الله بن المبارك الذي شهد له
النّاس بالفضل والعلم . وأثر عن كليهما كلام وشعر في التّزهيد في الدّنيا . وكانت هذه

(1) أبو نؤاس الحسن بن هانئ ، الديوان ، تح. ايدقالد قاغنز ، ط1 ، مطابع مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 2006م ،

المرحلة ممهّدة للتي تليها . وعرف فيها إضافة إلى هذه الأسماء أسماء أخرى زخرت بها كتب التّراجم والسير . ومن أعلام هذه المرحلة وأشهرهم على سبيل التمثيل :

1/ الحسن البصري :

هو أبو سعيد بن أبي الحسن يسار البصري . كان من سادات التّابعين وكبرائهم . أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وأمّه خيرة مولاة أمّ سلمة زوج النبي ﷺ ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله بالمدينة . وكانت إذا غابت أمّه في حاجة يبكي فتعطيه أم سلمة ، رضي الله عنها، ثديها تعلّله به إلى أن تجيء أمّه ، فدرّ عليه فشربه ، وقيل إنّ تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك . نشأ بوادي القرى ، وكان من أجمل أهل البصرة ، حتّى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث . وعرف بمواعظه البليغة ، قال عنه الغزالي: " كان الحسن أشبه النّاس بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصّحابة "(1). وكان كثير البكاء والحزن ، ما رآه أحد إلّا ظنّ أنّه حديث عهد بمصيبة . كما كان قليل النوم . جمع كل فنّ من علم وزهد وورع وعبادة . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف . فقيل له أيهما كان أفصح ؟ قال: الحسن . وقد توفي مستهل رجب [110هـ] بالبصرة . وقال ابن سعد في طبقاته : كان جامعاً ، عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ، حجّة مأموناً ، عابداً ، ناسكا كثير العلم فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً(2).

وكان الحسن يقصّ في الحجّ ، فمرّ به علي بن الحسين عليهما السلام ، فقال له: يا

(1) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد [450هـ/505هـ] إحياء علوم الدين ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، 1426هـ/2005م ، ج1 ص92 .

(2) ينظر: أبو عبد الله محمد بن سعيد بن مطيع ابن سعد [ت:230 هـ] الطبقات الكبرى ، دار صادر بيروت ،

شيخ أترضى نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فله في أرضه معاد غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فثمّ دار للعمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فلم تُشغل النَّاس عن طواف البيت؟ قال: فما قصّ الحسن بعدها.

توفي بالبصرة عشية الخميس مستهل رجب سنة عشر ومائة (110هـ) رضي الله عنه ، دفن بعد صلاة الجمعة ، وكانت جنازته مشهودة . إذ تبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة حتّى لم يبق بالمسجد من يصلّيها. وقال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأنّ طائراً أخذ أحسن حصة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلا حتّى مات الحسن.⁽¹⁾

وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء والولاة حفظتها كتب السير ، من ذلك مثلا :

** كتب إليه عمر بن عبد العزيز يقول له : إنّي قد ابتليت بهذا الأمر، فانظروا لي أعوانا يعينونني عليه . فكتب إليه الحسن: أمّا أبناء الدّنيا فلا تريدهم ، وأمّا أبناء الآخرة فلا يريدونك فاستعن بالله والسلام.

** وله مع الحجّاج وقعات هائلة ، وسلّمه الله من شره ، وربما حضر مجلسه فلم يقم، بل يوسّع له ويجلس إلى جنبه ، ولا يغيّر كلامه الذي هو فيه.

ومن أقواله ومواعظه التي اشتهر بها :

(1) ينظر: ابن سعد [ت: 230 هـ] الطبقات الكبرى ، ج7 ص156 - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي [ت: 681هـ] ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تج. إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، 1414 هـ / 1914م ، ج2 ص72 - عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح [ت: 1089هـ] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تج. محمود الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، ط1 ، دار ابن كثير، دمشق - بيروت ، 1406 هـ - 1986 م ، ج2 ص51

** كان في جنازة وفيها نوائح ، ومعه رجل فهمّ الرجل بالرجوع فقال له الحسن: يا أخي إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك.

** قيل له : ألا ترى كثرة الوباء؟ فقال: أنفق ممسك ، وأقلع مذنب، واتّعظ جاحد.

** نظر إلى جنازة قد ازدحم الناس عليها فقال: مالكم تزحمون؟ ها تلك هي ساريتة في المسجد ، اقعوا تحتها حتى تكونوا مثله.

** قيل له : إنّ فلاناً اغتابك ، فبعث إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فكافأتك.(1)

** قَالَ رحمه الله : ما أعطى الله أحدا شيئاً من الدُّنيا، إلا اختباراً، ولا منعه إلا اختباراً.(2)

** قال رحمه الله : "يا بن آدم: بع دنياك بأخرتك تريحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً. يا بن آدم: إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه ، الثَّوَاء ههنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسرِعَ بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة؟ فكأن قد، هيهات هيهات! ذهب الدنيا بحاليها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم.(3)

** قال: أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: من عملَ بغير علم كان ما يفسدُه أكثر مما يصلحه. . . وقال أيضاً: قصمَ ظهري عالمٌ لا زُهدَ معه ، وزاهدٌ لا علمَ معه ، هذا يدعو إلى جهله بزُهدِه ، وهذا يُنقِر عن علمه بحِرصِه.

(1) تراجع الأقوال في المصادر السابقة .

(2) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي [ت: 463هـ] ، تاريخ بغداد وذيوله ، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، 5ص245

(3) أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت، ج2ص485

** ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك. (1)

** قال رحمه الله يوماً لرجل: كيف طلبك للدنيا؟ قال: شديداً، قال: فهل أدركت منها ما تريد؟ قال: لا، قال: هذه التي طلبتها لم تدرك منها ما تريد فكيف بالتي لم تطلبها؟ (2).

2/ عبد الله بن المبارك :

أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي ثم المروزي الحافظ شيخ الإسلام. ولد سنة 118هـ، ورحل سنة إحدى وأربعين ومائة فلقى التابعين، وأكثر الترحال في طلب العلم، وروى عن جماعة كثيرة، وروى عنه خلائق وتفقّه بأبي حنيفة. قال العباس بن مصعب المروزي: جمع ابن المبارك الحديث والفقّه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. وقال شعيب بن حرب: سمعت سفيان الثوري يقول: لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر (3). صنف التصانيف النافعة. وقال ابن حنبل: لم يكن في زمانه مثله ولا أطلب منه للعلم؟ وقال ابن معين: كان ثقة متثبتاً. وكتب ما يقرب من عشرين ألف حديث. وكان غنياً رأس ماله نحو من أربعمئة ألف درهم. وكان من فحول الشعراء. ولما بلغ الرشيد موته قال: مات سيّد

(1) عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي [ت: 1363هـ] الذخائر والعقبريات (معجم ثقافي جامع)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ج1 ص177.

(2) محمد بن أيّدمر المستعصي [639هـ/710هـ]، الدرّ الفريد وبيت القصيد، تح. كامل سلمان الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1436 هـ - 2015 م، ج5 ص65

(3) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي [813هـ/874هـ] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح. محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م، ج2 ص133

العلماء ⁽¹⁾. وقد شهد له العلماء والصالحون من التابعين وغيرهم بالفضل. وقال فيه ابن عيينة: « نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزاهم معه». وقيل لعبد الله بن المبارك يا أبا عبد الرحمن إلى متى تكتب هذا الحديث فقال لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد. ⁽²⁾

عرف أيضا بتجهيزه لجيوش المسلمين الفاتحة والمشاركة فيها ، وقد لام الفضيل بن عياض المعروف أيضا بتقواه وزهده على ملازمته المسجد للعبادة وعدم المشاركة في الفتوحات فأرسل إليه شعرا قائلا ⁽³⁾ :

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ فَخُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعَبُ حَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارِ الْأَطْيَبِ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي غُبَارُ حَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

⁽¹⁾ ينظر : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي [ت: 764هـ] الوافي بالوفيات ، تح. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث - بيروت، 1420هـ - 2000م ج17ص226

⁽²⁾ ينظر كلام ابن عيينة وابن المبارك في : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي [ت: 597هـ] صفة الصفوة ، تح. أحمد بن علي ، دار الحديث، القاهرة، مصر ، 1421هـ/2000م ج2ص326 . حذف من الأقوال رواتها .

⁽³⁾ ينظر: الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك ، الديوان ، جمعه وحققه مجاهد مصطفى بهجت ، الرياض ، 1432هـ ،

فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.

كان عبد الله بن المبارك حكيما متبصرا مقدرا للأمر ، ومحلا لأسبابها. فقد رأى ، وهو الحريص على الدين ، أن من حماة الدين من يسيئ إليه كالمملك والرهبان الذين يتخذون الدين بضاعة يتاجرون بها فيبيعونها بأثمان بخسة ، ولا يرى في ذلك إلا كمن يرتع في الجيفة النتنة فالدنيا في نظره لا قيمة لها (1):

وَهَلْ بَدَّلَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكَ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ فَلَمْ يَزْبَحُوا وَلَمْ تُغَلَّ فِي البَيْعِ أُنْثَانُهَا
لَقَدْ رَتَعَ القَوْمُ فِي جِيفَةٍ يَبِينُ لِذِي العَقْلِ ائْتَانُهَا

وربما خدع الناس مظهرهم ، وحسبوا أن الزهد والتدين لباس صوف يميز لابسيه عن غيرهم ، فراح يصحح هذا المفهوم الخاطئ والذي يغري صاحبه في هذه الأبيات فقال (2):

ذُرِّ التَّرْتِيبَ فِي دُنْيَاكَ بِالدِّينِ وَأَعْمَلْ لِيَوْمٍ تُجَازَى بِالمَوَازِينِ
لَيْسَ اللِّبَاسُ لِلبَاسِ الصُّوفِ مِنْ عَمَلٍ وَلَا لِأَخْذِكَ شَعْرًا كالمَجَانِينِ
هَذَا اللِّبَاسُ مَعَ الرُّهْبَانِ فِي شَعَثٍ فَهَلْ تَرَاهُ نَجَاةً لِلرُّهَابِيِّينِ
قَدْ يَفْتَحُ المَرءُ حَائُوتًا لِمَتَجَرِّهِ وَقَدْ فَتَحَتْ لَكَ الحَائُوتَ بِالدِّينِ

وكما دأب الجيل الأول من الذين اشتهروا بالزهد على التزام الأخلاق وتهذيب النفس وتطهيرها من كل قبيح ، وهو ما أخذ به الصوفية الذين وجدوا التصوف خلقا، فإنَّ عبد الله

(1) الديوان ، ص115

(2) الديوان ، ص118

بن المبارك يحرص على ذلك إذ يقول عن تزكية النفس⁽¹⁾:

أَدَّبْتُ نَفْسِي فَمَا وَجَدْتُ لَهَا مِنْ بَعْدِ تَقْوَى اللَّهِ مِنْ أَدَبٍ
فِي كُلِّ حَالَتِهَا وَإِنْ قَصَّرْتُ أَفْضَلُ مِنْ صَمْتِهَا عَنِ الْكُذْبِ
وَعَيْبَةِ النَّاسِ إِنْ غَبَّتْهُمْ حَرَمَهَا ذُو الْجَلَالِ فِي الْكُتُبِ
قُلْتُ لَهَا طَائِعًا . وَأَكْرَمَهَا . الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ زَيْنُ ذِي الْحَسَبِ
إِنْ كَانَ مِنْ فِضَّةٍ كَلَامُكَ يَا نَفْسُ فَإِنَّ السُّكُوتَ مِنْ ذَهَبٍ

وإذا كان بعض الصّوفية الذين ظهروا بعد ابن المبارك يجدون متعة في الخلوة والمناجاة،

فإن ابن المبارك يجد متعة الخلوة في الجلوس إلى الكتب فيقول⁽²⁾:

وَلِي جُلَسَاءُ مَا أَمَلُ حَدِيثَهُمْ الْبَاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدًا
إِذَا مَا اجْتَمَعْنَا كَانَ حُسْنُ حَدِيثِهِمْ مَعِينًا عَلَى دَفْعِ الْهُمُومِ مُؤَيَّدًا
يُفِيدُونَنِي مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى وَعَقْلًا وَتَأْدِيبًا وَرَأْيًا مُسَدَّدًا
بِلَا رَقَبَةٍ أَخْشَى وَلَا سُوءَ عَثْرَةٍ وَلَا أَنْقِي مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدًا
فَإِنْ قُلْتُ: أَحْيَاءُ فَلَسْتُ بِكَاذِبٍ وَإِنْ قُلْتُ: أَمْوَاتٌ فَلَسْتُ مُفْعِدًا

ويرى العلم معيارا في إكبار الرجال أو استصغارهم فيقول⁽³⁾:

تَعَلَّمَ فَلَيْسَ الْمَرءُ يُؤَلَّدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَحُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَّقَتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

ومما يخلي الصّوفي باطنه منه الحسد الذي يهلك صاحبه فقال ذامًا له ولصاحبه الذي

(1) الديوان ، ص128

(2) الديوان ، ص136

(3) الديوان ، ص157

لا يبرأ منه إلا بالإنابة إلى الله تعالى فقال (1) :

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ
إِلَّا إِلَهُهُ فَإِنْ يَرْحَمُ تُحَلَّ بِهِ وَإِنْ أَبَاهُ فَلَا تَرْجُوهُ مِنْ أَحَدٍ

مما عرف به الزهاد إعراضهم عن الدنيا ، والزهد فيما في أيدي الناس ، وطلبه من الله من

الأمور التي أمر بها الرسول ﷺ ولذلك نرى ابن المبارك داعيا إليه قائلا (2):

لَا تَصْرَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالدِّينِ
وَأَسْتَرْزِقُ اللَّهَ مِمَّا فِي حَزَائِنِهِ فَإِنَّمَا هِيَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ
أَلَا تَرَى: كُلٌّ مَنْ تَرْجُو وَتَأْمُلُهُ مِنَ الْبَرِيَّةِ مَسْكِينٌ ابْنُ مَسْكِينٍ

ولا يرى الخير في المال إلا في إنفاقه وإلا فهو مُسْكِرٌ لصاحبه يعيش به في غفلة (3) :

لَا خَيْرَ فِي الْمَالِ لِكُنْزِهِ إِلَّا جَوَادِ الْكَفِّ نَهَابِهِ
يَفْعَلُ أَحْيَانًا بَزُورِهِ مَا يَفْعَلُ الْخَمْرُ بِشُرَابِهِ

ب- مرحلة التصوّف السني:

ظهر هذا النوع من التصوّف بعد مرحلة الزهد في الدنيا واختيار حياة الورع والتقوى

مقابل حياة اللهو والمجون والانغماس في ملذاتها ، الذي شاع في الحياة العباسية بعد ذلك.

وقد عدّ هذا التصوّف سنيا لأن أصحابه كانوا حريصين في أقوالهم على التزام الصوفي

بالكتاب والسنة. وكان همهم أن يوفقوا في إصلاح الباطن والظاهر وينالوا حبّ الله لهم .

(1) الديوان ، ص137

(2) الديوان ، ص162

(3) الديوان ، ص64

ومن أهم أعلامه عصرئذ أبو الحارث المحاسبي الذي وضع أصول التصوف والمجاهدة ، وتلميذه الجنيد ، والغزالي صاحب كتاب الإحياء الذي يقول عنه الصوفية : " من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء " ، وأبو القاسم القشيري المعروف بالرسالة التي تعدّ من أهم ما أُلّف في التصوف ، وعبد القادر الجيلاني المعروف بالقطب أو الغوث . ومن هؤلاء من كان له شعر في التصوّف.

1/أبو الحارث المحاسبي

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور . والمحاسبي بضم الميم وفتح الحاء المهملة وبعد الألف سين مهملة مكسورة وبعدها باء موحدة. وعرف بهذه النسبة ، لأنّه كان يحاسب نفسه . قيل: إنّه ورث من أبيه سبعين ألف درهم ، فلم يأخذ منها شيئاً ، لأنّ أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً وقال : صحّت الرواية عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: لا يتوارث أهل ملتين شيئاً⁽¹⁾.

ويحكى عنه أنّه كان إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرّك على إصبعه عرق. ويحكى عن الجنيد أنّه قال: مرّ بي يوماً الحارث المحاسبي فرأيت فيه أثر الجوع فقلت: يا عمّ تدخل الدار وتتناول شيئاً؟ فقال: نعم . فدخلت الدار وطلبت شيئاً أقدمه إليه ، فكان في البيت شيء من طعام حمل إليّ من عرس قوم فقدمته إليه ، فأخذ لقمة وأدارها في فيه مرّات ، ثمّ إنّه قام وألقاها في الدهليز ، ومرّ فلما رأته بعد ذلك بأيام ، قلت له في ذلك ، فقال: إنّي كنت جائعاً وأردت أن أسرك بأكلي ، وأحفظ قلبك ، ولكنّي بيني وبين الله سبحانه علامة أن

(1) ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2ص57

لا يسوّغني طعاما فيه شبهة فلم يمكنني ابتلاعه ، فمن أين كان لك ذلك الطعام؟ فقلت:
إنّه حمل إلي من دار قريب لي من العرس، ثمّ قلت: تدخل اليوم؟ فقال: نعم ، فقدمت إليه
كسرا يابسة كانت لنا فأكل ، وقال: إذا قدّمت إلى فقير شيئا فقدّم إليه مثل هذا.
كان شديد الزهد حتّى قيل إنّه مات وهو محتاج إلى درهم ، وقد خلف أبوه ضياعا وعقارا
فلم يأخذ منه شيئا.. وله كتب في الزهد والأصول . مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين
(243هـ) (1).

ومن أقوال الحارث المحاسبي:

« من صحّ باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زيّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة. وكان
يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء
مع الوفاء» .

« لَا يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الْعَبْدُ الْوَرَعَ بِتَضْيِيعِ الْوَاجِبِ »

«من اجتهد في باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد

باطنه ورثه الله تعالى الهداية إليه لقوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (2)

« العلم يُورث المخافة ، والزهد يُورث الرّاحة ، والمعرفة تورث الإنابة »

« خِيَارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ آخِرَتُهُمْ عَنْ دُنْيَاهُمْ وَلَا دُنْيَاهُمْ عَنْ آخِرَتِهِمْ »

« الَّذِي يَبْعَثُ الْعَبْدَ عَلَى التَّوْبَةِ تَرَكَ الْإِضْرَارَ وَالَّذِي يَبْعَثُهُ عَلَى تَرَكَ الْإِضْرَارِ مُلَازِمَةٌ

الْخَوْفِ »

(1) ينظر : أبو القاسم القشيري ، الرسالة ، ص 32 وما بعدها

(2) العنكبوت : 69 ، وتامها : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

« المحاسبة والموازنة في أربعة مواطن فيما بين الإيمان والكفر وفيما بين الصدق والكذب

وبين التوحيد والشرك وبين الإخلاص والرياء »⁽¹⁾

2/ الجنيد

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري. كان يبيع الخبز وأبوه يبيع القوارير.

أصله من نهاوند ، وولد بالعراق ونشأ به. عرف بالزهد والورع ، فكان سيّد الطائفة ، ومقدّم

الجماعة ، وإمام أهل الخرقه ، وشيخ طريقة التصوّف . كان إذا مرّ بشارع بغداد وقف له

الناس كالملوك . أخذ الفقه على مذهب أبي ثور صاحب الشافعي ، والطريقة عن خاله

سرّي السقطي [ت : 248هـ]⁽²⁾. وبه يكتفي بعضهم عن سلوكهم مسلك التصوّف ، لأنّ

كان من المؤسسين له في البدايات .

ومن أقواله : " مذهبنا هذا مقيد بالأصول ؛ بالكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب

الحديث ويتفقّه لا يقتدى به "⁽³⁾ وقال أيضا : ما أخذنا التصوّف عن القيل والقال ، لكن

عن الجوع وترك الدّنيا ، وقطع المألوفات والمستحسّنات ، لأنّ التصوّف من صفاء المعاملة

مع الله سبحانه وتعالى وأصله التفرّق عن الدّنيا كما قال حارثة : عرفت نفسي في الدّنيا

فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري"⁽⁴⁾.

وفي هذه الفترة بدأ ظهور الحب الإلهي (العشق الإلهي) عند طائفة من الزهاد ،

(1) ينظر : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي [ت: 412هـ]،

طبقات الصوفية ، تح. مصطفى عبد القادر عطا ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1419هـ/1998م ص60

(2) ينظر: طبقات الصوفية ، ص129 . وفيات الأعيان ، ج1ص373 . طبقات الشافعية الكبرى ، ج2ص260 .

الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (الطبقات الكبرى) ، ج1ص570.

(3) ينظر : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، تح. محمد حامد الفقي ،

ط2 ، دار المعرفة - بيروت ، 1395 - 1975 ، ج1ص : 125

(4) ينظر : القشيري ، الرسالة ، ص48 .

وجعلوه طريقهم في الوصول إلى حب الله لهم ، ومن بين من عرفوا به يومئذ رابعة العدوية

3/ رابعة العدوية الملقبة بشهيدة العشق.

وهي أمّ عمرو رابعة بنت إسماعيل البصريّة ، الزّاهدة ، العابدة ، الخاشعة ، عرفت بالزهد في الدنيا حتى أنّها كانت لا تحب سماع الحديث عنها. وعاشت فقيرة رافضة مساعدات الميسورين من الصالحين لها . وروي أنّها سمعت صالحا المرّي يذكر الدّنيا في قصصه ، فنادته : يا صالح ، من أحبّ شيئا، أكثر من ذكره.(1) كانت تقضي جلّ وقتها عابدة متنسّكة ، تصوم نهارها، وتقوم ليلها ، فإذا أفطرت أغناها من الطعام قليله . وممّا ذكر في كتب السيّر ما روته عبدة بنت أبي شّوّال ، وكانت تخدم رابعة العدويّة ، قالت: كانت رابعة تصلّي اللّيل كلّه ، فإذا طلع الفجر، هجعت هجعة حتّى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول: يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلّا ليوم النّشور.(2)

عاصرت كثيرا من العلماء والصالحين كالحسن البصري وسفيان الثوري. وقد أوتيت من الحكمة كثيرا . قال أبو سعید بن الأعرابي: أمّا رابعة، فقد حملت النّاس عنّها حكمة كثيرة ، وحكى عنها سفيان، وشعبه، وعيزههما(3) كما كانت زاهدة في الزواج وتقول بأنّه لا مكان في قلبها لغير محبوبها الله تعالى. وقد روي بأنّ الحسن البصري توفيت زوجته فأراد زوجة

(1) ينظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الدّهبي ، سير أعلام النبلاء ، تح. مجموعة محققين بإشراف شعيب

الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ج15ص245

(2) المرجع السابق ، ص246

(3) المرجع نفسه ، ص246

فقيل له عن رابعة العدوية فأرسل إليها يخطبها، فردته وقالت⁽¹⁾:

رَاحَتِي يَا إِخْوَتِي فِي خَلْوَتِي وَحَبِيبِي دَائِمًا فِي حَضْرَتِي
لَمْ أَجِدْ لِي عَن هَوَاهُ عِوَضًا وَهَوَاهُ فِي الْبَرَايَا مِخْنَتِي
حَيْثُمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ حُسْنَهُ فَهُوَ مِخْرَابِي إِلَيْهِ قِبْلَتِي
إِنْ أُمَّتٌ وَجَدًا وَمَا تَمَّ رِضًا وَإِعْنَانِي فِي الْوَرَى وَاشْتِوَتِي
يَا طَبِيبَ الْقَلْبِ يَا كُلَّ الْمُنَى جُدْ بِوَصْلِ مِنْكَ يَشْفِي مُهْجَتِي
يَا سُرُورِي يَا حَيَاتِي دَائِمًا نَشَأَتِي مِنْكَ وَأَيْضًا نَسْوَتِي
قَدْ هَجَرْتُ الْخَلْقَ جَمْعًا أَرْتَجِي مِنْكَ وَصَلًا فَهُوَ أَقْصَى مُنْيَتِي

فراحتها وسعادتها حين تخلو إلى ربها متبتلة في حضرته راجية تحقيق حبه ، فهو أقصى ما ترتجي ، وكل ما تتمنى رضاه عنها ، أما الخلق فلا يهتمها رضاهم أو سخطهم . ومن شعرها في الحب الإلهي:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

في أبياتها تفلسف حبها لله ، فهي تحب الله تعالى الذي أخلصت له فيه حبين ؛ الحب

(1) ينظر : زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدوم ، ط1 ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر ، 1312هـ ، ص203 . وهناك من يشكك في هذه الرواية بحجة فارق السن بينهما ، ويرى بأنه ربما كانت صغيرة جدا لما توفي الحسن والسبب يرجع إلى تضارب الأخبار في تاريخ مولدها ، وهو اختلاف كبير يصل إلى عقود كتدبير بعضهم تاريخ وفاتها ب135هـ وأخرون ب185هـ .

الأول حب الهوى وذاك لأنها تتاجيه بذكره فيمتلئ قلبها بحبه ولا يههما بعد ذلك سخط

الخلق وعبرت عن ذلك في الأبيات المنسوبة إليها وإلى غيرها إذ تقول :

فلبتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

والحب الثاني حب الشاكرة التي تجلّت لها أنوار ربّها وعرفتھا بقلبها ، فأوجبت عليها

حبّه أيضا ، فالعارفون ، كما يقول الصوفية ، يرون ما لا يراه غيرهم ، لأنّ قلوبهم اتّصلت

بخالقها فعرفها به . وأنشدوا في ذلك أبياتا نسبت إلى أكثر من واحد. قيل إنّها لامرأة

صالحة تسمى ميمونة السوداء ، ولها قصة مع إبراهيم بن أدهم ، وقيل هي للحلاج ..(1) :

قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا عُيُونٌ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاطِرُونَ

وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُتَاجِي تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ

وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

والحبّان (حب الهوى وحب الشكر) معا لا فضل لها فيهما ، ولهذا وجب عليها

الإقرار بفضل الله عليها في ذلك وحمده وشكره أيضا. فهما منتان من الله تعالى عليها ،

وحبّها لربها هو حب خالص ، كما تقول ، لا رغبة في جنته ، ولا رهبة من ناره ، إنّما هو

الحب لأنّه أهل لأن يحب . وقد روي عنها قولها: " وعزّتك ما عبدتك رغبة في جنتك ،

(1) ينظر: أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب [ت:406هـ] ، عقلاء المجانين ، تح. عمر الأسعد ، ط1 ، دار

وليس هذا أي الجنّة ما قطعت عمري في السلوك إليه ⁽¹⁾. وهي لا تسمع لمن يلومها على هذا السلوك . فربما خالفها آخرون في العبادة فجمعوا بين الرغبة والرغبة ، ولا ترى نشوتها وسعادتها إلا في هذا الحب ، فهي تشرب منه حتى الثمالة ، وفي ذلك تقول أبياتا نقلها عبد الرحمن بدوي ⁽²⁾:

كأسي وخمرتي والنديم: ثلاثة وأنا المشوقة في المحبة
كأس المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعة
فإذا نظرت فلا أرى إلا له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلي إني أحب جماله تا الله ما أذني لعذلك سامعه

إنّها تغيب عن جلسائها إن اتصلت بخالقها بروحها ، ولا تشعر بوجودهم إذ السكر بحبه غيّبها عنهم كما تغيب الخمرة وعي شاربها ، ولا غرابة في ذلك فهي التي هجرت الدنيا وما فيها من أجل محبوبها ⁽³⁾:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليل مؤانس وحبیب قلبي في الفؤاد أنيسي

وهي بهذا تمثل الزهد القائم على الحبّ والتقاني فيه ، بخلاف التيار الآخر الذي يمثله الحسن البصري ، والذي كان يمثل الزهد القائم على الخوف والرجاء . فهي تعبد الله حبا فيه لا رغبة في عطائه ولا رهبة من عقابه . ويرى باحثون بأنّها بهذا التوجّه أسست لما عرف

⁽¹⁾ ينظر: عبد الرحمن بدوي ، شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية ، ط2، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962م ، ص112

⁽²⁾ المرجع نفسه ، ص173

⁽³⁾ ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2ص287 . عبد الرحمن بدوي شهيدة العشق ، ص63

بعد ذلك بالتصوف العرفاني القائم على الحب والسكر والفناء والغيبة ، ويلييه بعد ذلك التوجّه القائم على فلسفات الاتحاد والحلول ، بل هناك من يرى بأنّ شعر ابن الفارض الملقّب بإمام العاشقين ما هو إلا ترديد لكلامها وإعادة بعثه بصورة أخرى.

وقد كان الصوّفية في هذا العصر لايزالون متمسكين في العموم بالكتاب والسنة رغم ظهور تحفظات بعض العلماء على بعضهم . كما بدأ كذلك حديث الناس عن الكرامات⁽¹⁾ التي تميّز بها كثير منهم . وصارت بعد ذلك حديث الأتباع يتناقلونها بينهم ، ويحدّثون الناس بها تأثراً بها ومحاولة للتأثير فيهم بها.

ج- مرحلة التصوف العرفاني أو الفلسفي:

ظهر التصوّف العرفاني متميّزا عن غيره بالفلسفة ، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث الهجري الذي انتشر فيه الفكر الفلسفي نتيجة الامتزاج بثقافات الشعوب المجاورة للدولة العباسية التي اتّسعت رقعتها فشملت مشرق الأرض ومغربها ، كما كان لعلماء بيت الحكمة في ترجمة الفلسفة اليونانية وغيرها آثاره في نقل فكر هؤلاء إلى البلاد الإسلامية . وكان للصّوفية نصيب من هذا التأثير. وقد تجلّى هذا في أقوال كثير منهم كالحلاج صاحب نظرية الحلول⁽²⁾، والتي جنت عليه فأعدم متّهما بالزندقة ، والبسطامي صاحب

(1) ارتبط ذكرها كثيرا بالصّوفية سيأتي شرحها لاحقا.

(2) " .. زعموا أنّ الحق اصطفى أجساما حل فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية .. والأجسام التي اصطفاه الله تعالى أجسام أوليائه وأصفيائه " ينظر : عبد المنعم الجفني ، معجم مصطلحات الصّوفية ، ط3 ، دار المسيرة ، بيروت 1407هـ - 1987م ، ص : 73

والاتحاد هو تصيير ذاتين واحدة ، وهو حال الصوفي الواصل ، وقيل شهود وجود واحد مطلق من حيث أن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد معدومة في أنفسها .. ينظر المرجع نفسه : ص9

الشّطحات التي هي ثمرة نظرية الفناء⁽¹⁾، وابن عربي الملقب بالشيخ الأكبر، وكان يعتقد بفكرة وحدة الوجود⁽²⁾، وابن الفارض وجلال الدين الرومي والسّهروزي وغيرهم ممّن حملوا هذه الأفكار. وهي غريبة عن التصوف السّني ، وهناك من يردّها إلى أصول وثنية أو هندية أو للأفلاطونية الحديثة .

وصار الصّوفية يرون بأنّ العلم علما علم شريعة وعلم حقيقة . وسيلة العلم الأوّل هي المذاكرة والتلقين والاستناد إلى الظاهر النّصي. أما الثّاني فإنّ أصحابه يعتمدون في معرفتهم على القلب (حدثني قلبي عن ربي) وما يلهم به الله الصوفي من العرفان اللدني⁽³⁾ والوهمي. ويصل السالك في طريق التّصوّف إلى هذه المرحلة بعد المجاهدات والرياضات والمكابدات، أي لا يلهم الصّوفي بهذا العلم، ولا يفتح به عليه إلا بعد المرور على مجموعة من المقامات والأحوال ، والارتقاء من مقام إلى مقام عبر مجاهدة النّفس ومحاسبتها فيتحقّق (يصل إلى علم الحقيقة) وتتحقّق له حينئذ المكاشفات بعد الفناء والغيبة⁽⁴⁾ .. إلى غير ذلك ممّا اصطلح عليه الصّوفية . فإذا أوتوا هذا العلم حدّثوا النّاس بما لا يعلمون ،

(1) الفناء : تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات . فكما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية مقامها فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث . وقيل الفناء سقوط الأوصاف المذمومة والبقاء عكسه وهو ثبوت النعوت المحمودة ، وقيل هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلّى ربه للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا . وقيل الفناء عن الخلق هو الانقطاع عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما لديهم .. وقيل الفناء أن لا ترى شيئا إلا الله ولا تعلم إلا الله وتكون ناسيا لنفسك ولكل الأشياء سوى الله فعند ذلك يترأى لك أنه الرب إذ لا ترى ولا تعلم شيئا إلا هو ، فتعتقد أنه لا شيء إلا هو فتظن أنك هو فتقول أنا الحق وتقول ليس في الدار إلا الله وليس في الوجود إلا الله (المعجم ص208) هو محو الإرادات واحتراق جميع الصفات والحاجات [كلام الخواص في العشق والفناء]

(2) وحدة الوجود، يعني في العقيدة الصوفية أنه ليس هناك موجود إلا الله، فليس غيره في الكون، وما هذه الظواهر التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة، هي الحقيقة الإلهية التي تنوعت وجوداتها، ومظاهرها في هذا الكون المشاهد.

(3) اقتبسوا التسمية من قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأَنبَتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

وخاطبهم بلغة غير مألوفة لدى كثير منهم . لغة لها ظاهر وباطن . ولهذا تحوّلت كلمات كثير من هؤلاء إلى رموز يصعب على كثيرين فكّها ، فيلجأ من لا يستطيع ذلك إلى تأويلها، بل إنّ أصحابها يضطرون إلى توضيحها كما حدث مع ابن عربي القائل :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

يروى عنه أنّه قال: قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت: كيف تقول: إنّه لا يراك وأنت تعلم أنّه يراك فقلت له مرتجلاً:

يا من يراني مجرماً ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائذاً⁽¹⁾

فظاهر كلامه الأول يحمل وصفا لا يليق بالله عزّ وجلّ ، لأنّ فيه نفيا للرؤية عنه ، غير أنّ ابن عربي نفسه فسّر كلامه للسائل بالبيتين الأخيرين فأزال اللبس عنه . فكلامه يحمل على التّأويل. ولا ينسحب هذا على كلامه كله ، فأحيانا يضمّن شعره أفكاره التي آمن بها كفكرة وحدة الوجود التي لا يمكن البحث عن المعنى الخفي فيها. مع إمكانية حمل النّاس كلامه على الظاهر. وقد حاول تبرير لجوئه إلى الرمز وإلى التّخفي وراء العبارة أو الاكتفاء بالإشارة إلى المعاني أحيانا فقال بعد ذكر أشياء كثيرة من الطبيعة :

كل ما أنكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهما

منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما

لفؤادي أو فؤاد من له مثل ما لي من شروط العلما

(1) ينظر أحمد بن المقري التلمساني ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ن تح. إحسان عباس ، ط2 ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ج2ص168

صفة قدسية علوية أعلمت أن لصدقي قدما

فاصرف خاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلما

فإشارته هنا واضحة إلى أنّ استعماله في شعره للأطال أو لأشياء كثيرة من الطبيعة كالشمس والنجم والبرق والرياح... أو استعماله للمرأة ، أو للضمائر أو غيرها إنّما يستعملها رموزا لمعاني أخرى . وهذه المعاني يدركها ويفكّ رموزها من كان مثله ممّن توفرت فيهم شروط العلماء، ولعلّه هنا يريد علماء التصوّف . ولهذا فهو يطلب ممّن قرأ كلماته حملها على المعني الباطن لا المعنى الظاهر. وقد ضمّن كثير منهم أشعارهم أو شطحاتهم هذه المعاني . ولأنّهم اتّسعت لهم الرؤية فلا تكون لغتهم مناسبة لنقل ما شاهدوه فيلجؤون إلى استعمال الرمز. ولفهمهم لا بد من التّأويل لخطابهم.

ولأنّ الصّوفية يختلفون فقد تمايز أدبهم من حيث شكله ومضمونه بتمايزهم هم أنفسهم . فكان لكل طريقة وأدب. ومما اختلفوا فيه ما تضمّنه أدب بعضهم من أفكار عدّت غريبة لأنّ منشأها من حضارات أخرى ودخلت بلاد المسلمين مع ما نقل من فلسفات وآداب. ولهذا فرّق بعضهم بين الصّوفية والفلسفة الصّوفية . وهذه الفلسفة غالبا ما نجدها لدى العرفانيين من الصّوفية . وقد كان من أدبهم النثر والشعر على حدّ سواء . ولعلّ البدايات كانت للنثر أكثر من الشعر. إذ لم يظهر الشعر الصوفي إلا بعد شعر الزهد والوعظ الذي اشتهر فيه كثيرون كعبد الله بن المبارك وأبي العتاهية .

بعض المصطلحات الصوفية

أثرى الصّوفية معجمهم بكثير من الاصطلاحات ، عُني بجمعها عدد منهم ومن غيرهم في معاجم عرفت باسمهم. أذكر منها ما يجده القارئ في أدبهم ، ولا يفهمه ما لم تقم هذه المصطلحات ، وقد اقتصرنا على بعضها وللاستزادة يمكن الرجوع إلى بعض هذه المعاجم ، والمصادر⁽¹⁾.

1/ **الكشف** : وهو الاطلاع على ما وراء الحجب من المعاني الغيبية وجودا أو شهودا . أو هو ما يلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشّهوانية وإقبالها بالقلوب على المطلوب. ويعني هذا أنّ الكشف هو العلم اليقيني الذي ينكشف فيه للصّوفي العلوم والمعارف انكشافا تامّا لا يبقى معه ريب. لذلك نرى أنّ بعض الصّوفية جاءوا بمعان جديدة للقرآن والسنة والآثار ، وزعموا أنّهم يأخذون ذلك عن الله مباشرة وليس عن الموتى ، وقالوا إنّ علماء الشرائع يأخذون ميتا عن ميت وهم يأخذون عن الحيّ الذي لا يموت .

2/ **وحدة الوجود** تنسب إلى محي الدين بن عربي الذي جعل الله والخلق شيئا واحدا . وتقوم هذه النظرية في مدلولها البسيط على أنّ كل الموجودات التي في الكون رغم كثرتها وتعدّدها شيء واحد هو الله سبحانه ، فالله يظهر ويتجلّى في صور متعددة . والمراد بها أيضا أنّ الله هو الحق وليس هناك موجود إلا موجود واحد هو الموجود المطلق وهو الله ،

(1) ينظر مثلا :

- أبو القاسم : الرسالة القشيرية

- عبد المنعم الحفني معجم مصطلحات الصوفية

- حسن الشراقوي ، معجم ألفاظ الصوفية

- أيمن حمدي ، قاموس المصطلحات الصوفية

فليس غيره في الكون وأمّا العالم فهو مظهر من مظاهر الذات الإلهية ، والعالم ليس له وجود في ذاته لأنّه صادر عن الله بالتّجلي .

3/ **الاتّحاد** : يعني أنّ الإنسان يتّحد بالله ، وفي حالة الاتّحاد قد يفقد الشّيء ذاتيته أو بعض أوصافها أو خصائصها ، وفيه تكون الذاتان أكثر تداخلا وأكثر قربا . وتتسبب هذه النظرية لأبي يزيد البسطامي .

4/ **الحلول** ويعني أنّ الله تعالى في جميع أجزاء الكون في البحار والجبال والصّخور والأشجار والإنسان والحيوان مع بقاء عنصر كل من الطرفين الذين حلّ أحدهما في الآخر على حالته الأولى ، فمن زعم أنّ الإله حلّ في البقرة فإنّ البقرة مازالت بقرة وتؤدي وظائفها كما هي .

والفرق بين الحلول والاتّحاد ووحدة الوجود :

الحلول يعني وجود شيء داخل شيء آخر دون أن يفقد أحدهما طبيعته أو هويته أو ذاتيته أو ماهيته ، فتحلّ الذات الإلهية في الذات الإنسانية فيحلّ على تعبيرهم اللاهوت في النَّاسوت .

أما الاتّحاد فيكون أكثر قربا وامتزاجا وتداخلا ، وقد يفقد الشّيء الممتزج ذاته أو بعض صفاته وخصائصه .

أمّا وحدة الوجود فتعني أنّ الله هو الموجود وما سواه فناء ، وأنّ الأشياء في الأصل كلّها شيء واحد ، ولكنه قد يظهر بمظاهر متعددة ؛ فيظهر الله تعالى في صور الكائنات المتعددة .

5/ **المقام** : والمراد بالمقام المنزلة التي يقيم بها المتأدّب وهو ما يشتغل به العبد من

الآداب

العامّة والمعاملات والمجاهدات في ظاهره وباطنه ، وشرطه ألا يرتقي إلى مقام آخر حتّى يستوفي ما هو فيه ، فإنّه من لا قناعة له لا يصح له التوكّل ، ومن لا توكّل له لا يصح له التّسليم ومن لا توبة له لا تصحّ له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصحّ له الزهد ..

6/ **الحال** : وهو ما يرد على القلب من غير تصنّع ولا اجتلاب ولا اكتساب مثل طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج ..

وقيل إنّ الحال تدوم ، وقيل إنّها عرضة للزوال والصّواب أنّها قابلة للزوال قبل زوالها تسمى حالاً ، وعندما تزول تسمى وارداً والوارد هو كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمد . فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود.

7/ **القبض والبسط** : وهما حالتان تردان على العبد تقرّبان من الخوف والرجاء أو يسببهما الخوف والرجاء بمعنى أن العبد يرتقي من حال الخوف والرجاء إلى حال القبض والبسط . يقول الجنيد الخوف من الله يقبضني والرجاء منه يبسطني .

8/ **الفناء والبقاء** : الفناء هو سقوط الصّفات الذميمة ، والبقاء بروز الأوصاف المحمودة ، وهما متلازمان ؛ فمن فني عن شهوته بقي بإخلاصه وعبوديته ، ومن فني عن الدنيا بزهده فيها بقي بصدق إنابته ..

9/ **الغيبة والحضور** : الغيبة هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لانشغال الحس بما ورد عليه من تذكر ثواب أو عقاب . روي أنّ الربيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود رضي الله عنه فرأى الحديد المحماة في كير أحد الحدادين فغشي عليه ، فلما أفاق من غيبته سئل عن ذلك فقال تذكرت كون أهل النار في النار .

10/ **الشريعة والحقيقة** : الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة

غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، وكلّ حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محسولة . فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تعريف الحقّ . فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، فالشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر . ويقولون الشريعة مكاسب والحقيقة مواهب .

11/ **الصحو والسكر** : فالصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة ، والسكر غيبة بوارد قوي ، والسكر زيادة على الغيبة من وجه ، وذلك أنّ صاحب السكر قد يكون مبسوطاً إذا لم يكن مستوفياً في سكره ، وقد يسقط أخطار الأشياء عن قلبه في حال سكره ، وتلك حال المتساكر الذي لم يستوفه الوارد ، فيكون للإحساس فيه مساغ وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة . فربما يكون صاحب السكر أشدّ غيبة من صاحب الغيبة إذا قوى سكره ، وربما يكون صاحب الغيبة أتمّ في الغيبة من صاحب السكر إذا كان متساكراً غير مستوفٍ . والغيبة قد تكون للعبادة بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرغبة

ومقتضيات الخوف والرجاء . والسَّكر لا يكون إلا لأصحاب المواجد ، فإذا كوشف العبد

بنعت الجمال حصل السَّكر، وطالب الروح ، وهام القلب وفي معناه أنشدوا:

12/ الكرامات : الكرامة هي خرق للعادة على غير ما أَلَّفَ الناس . وهي بالنسبة للولي

كالمعجزة للنبي ، فهي دليل صدق . ومن الكرامات التي عادة ما يتناقلها الصوفية وأتباعهم

طي المكان أي الانتقال من مكان إلى آخر يبعد عنه بمسافات طويلة في وقت وجيز جدا

فهو كلمح البصر . والمشي على الماء وظهور الشيء في غير موضعه أو وقته كالإتيان

بفاكهة الصيف في الشتاء ...

الرمز في الأدب الصوفي

ارتبط الأدب الصوفي بالرمزية في أغلب الأحيان خاصة ممّن اشتهروا بالعرفانيين . فهم يرون أنّ الصوفي لا يكتفي بما عليه عامّة الناس ، بل هو يسمو بروحه إلى العلياء ، ويخرج وهو في حالة سكره بالحبّ الإلهي من عالم المادة إلى عالم الروح ، حيث تتجرد النفس من ماديتها ، وتترقى في المقامات والأحوال حتّى تصل عالم المكاشفة ، وتكون الرؤية حينئذٍ بالقلب لا بالنظر ، وتتكشف الحجب ، ويرى الصوفي ما لا يراه غيره ، وما يصعب عليه تحمّله أحيانا . فيعيش هذه الحالة التي يفترض فيها كما يقولون كتم ما رأى ، غير أنّ ما رآه أكبر من طاقته على كتمانها ، ويتغلّب عليه ، وقد يضيق به صدره فينطلق لسانه ليعبّر عنه بكلام لا يستسيغه الناس . يقول أبو نصر السراج واصفا هذه الحال: " وبعد فإنّ الله تعالى فتح قلوب أوليائه ، وأذن لهم بالإشراف على درجات متعالية ، وقد جاد الحقّ تعالى على أهل صفوته والمتحقّقين بالتوجّه والانقطاع إليه بكشف ما كان مستترا عنهم قبل ذلك من مراتب صفوته ، ودرجات أهل الخصوص من عباده . فكلّ واحد ينطق بحقيقة ما وجد ، ويصدق عن حاله ، ويصف ما ورد على سرّه بنطقه ومقاله . لأنّهم لا يرون حالا أعلى من حالهم حتّى يحكموها . فإذا أحكموها فعند ذلك يسمّون بهمهم إلى حالة أعلى من ذلك حتّى تنتهي الطرق والأحوال والأماكن إلى غاية ونهاية ، هي أعلى النّهيات وغاية الغايات".⁽¹⁾

فالسالك من الصوفية مدراج السالكين يجد نفسه قد وصل إلى حضرة الألوهية ، وأشرقت عليه أنوارها ، وأصبح أمام الذات التي هام بها ، وسكر بحبّها ، فيشعر بهذا الدنو منها ويخيّل إليه أنّه اتّحد بها ، ولا يستطيع تحمّل ما رأى لما حدث له من وجد عنيف ، فلا يستطيع معه الكتمان وقد يهتك الأستار . فالرؤية اتّسعت والعبارة تضيق بالمعاني ،

(1) أبو نصر السراج ، اللمع ، تح. عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب المصرية الحديثة ، 1380هـ/

فيلجأ ساعتها إلى النطق بعبارات تتجاوز حدود العقل ولا يستوعبها فهم الناس ، وقد أطلقوا عليها اسم الشطح ، فكلها رموز وغرابة . يقول السراج : " ألا ترى أنّ الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض على حافته يقال له شطح الماء في النهر ، فكذلك المريد الواجد إذا قوي وجدته ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه ، سطع ذلك على لسانه ، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهوم سامعيها إلا من كان من أهلها ، ويكون متبحراً في علمها . فسمي ذلك على لسان أهل الاصطلاح شطحا ، وهي عبارته مستغربة في وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته " (1) .

ولاستعمال الصّوفية الرمز في أدبهم ما يبرره عندهم ، نجملها في هذه المبررات :

1/ اتّسع الرؤية وضيق العبارة ، فلو أنّهم تكلموا بلغة الظاهر في هذه الحالة فإنّ هذه اللغة عاجزة عن نقل هذه التجربة كما هي ، فيعوّل عندها على لغة الباطن . أو بعبارة أخرى اللجوء إلى الرمز استبعادا لمساءلتهم وأخذهم بما يقولون ، فما رأوه أكبر من أن يعبر عنه .

2/ إنّ ما عاشه بعض الصّوفية نتيجة أفكارهم الغريبة عن المجتمع من تضيق ومحاكمة كما حدث للحلاج دفعهم إلى اتّخاذ الرمز وسيلة في التعبير عن أنفسهم حفاظا عليها ، وفي ذلك يقول السهروردي (2) :

بالسرّ إن باحوا تُباح دِمَاؤُهُمْ وَكَذَا دِمَاءَ الْبَائِحِينَ تُبَاح

وَإِذَا هُمْ كَتَمُوا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ عِنْدَ الْوَشَاةِ الْمَدْمَعِ السَّحَّاحِ

فلا هم يستطيعون الكتمان ، ولا هم يستطيعون البوح بما كشف لهم ، ولا يجدون حينئذ مفرا من استعمال لغة الإشارة والرمز .

3/ إنّ ما يعيشونه من وجد لا يمكن التّعبير عنه بلغة مباشرة ، فيتّخذون بعض الأشياء رموزا تتجسّد فيها الحالات والمعاني التي يعيشونها كالخمرة مثلا أو المرأة أو بعض الكائنات أو الطبيعة .. يقول ابن عربي متحدّثا عن الرمزية في شعره (3) :

(1) المرجع السابق ، ص453

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج6 ص 271

(3) ابن عربي ، ديوان ترجمان الأشواق ، ص25

كُلَّمَا أَدْنَكَهُ مِنْ طَلِّ أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَعَانٍ كُلَّمَا
وَكَذَا إِنْ قُلْتُ: هَا، أَوْ قُلْتُ: يَا
وَكَذَا إِنْ قُلْتُ: هِيَ، أَوْ قُلْتُ: هُوَ
وَكَذَا إِنْ قُلْتُ: قَدْ أَنْجَدَ لِي
وَكَذَا السُّحْبُ إِذَا قُلْتُ: بَكَتْ
أَوْ أُنَادِي بِحُدَاةٍ يَمَّمُوا
أَوْ بُدُورٍ فِي حُدُورٍ أَقَلْتُ
أَوْ بُرُوقٍ أَوْ رُعُودٍ أَوْ صَبَاً
أَوْ طَرِيقٍ أَوْ عَقِيقٍ أَوْ نَقَاً
أَوْ حَلِيلٍ أَوْ رَحِيلٍ أَوْ رَبِّي
أَوْ نِسَاءً كَاعِبَاتٍ نُهِّدُ
كُلَّمَا أَدْنَكَهُ مِمَّا جَرَى
مِنْهُ أَسْرَارٌ وَأَنْوَارٌ جَلَّتْ
لِفُؤَادِي أَوْ فُؤَادٍ مَنْ لَهُ
صِفَةٌ فُؤَادِيَّةٌ غُلُوبِيَّةٌ
فَأَصْرَفِ الْخَاطِرَ عَنِ ظَاهِرِهَا
وَاطْلُبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

فهذه الموجودات التي ذكرها يصرِّح في نهاية أبياته بأنها ليست المقصودة بكلامه ، إنما هي رموز يعبر بها عما ورد على فؤاده من أسرار ربانية ، لا يدركها إلا من أوتي مثل ما أوتي هو من الكشف عن الحقائق ، ممن توفرت فيهم شروط العالم الصوفي ، أو ما يسمونه بالعالم الواصل الذي بلغ المقام السامي ، وكشفت له الأستار فتحقق ، ووهب علم الحقيقة . كما طلب من قارئ كلامه ألا يأخذه على ظاهره ، إنما يسعى لإدراك باطنه الذي استعمل الإشارة والرمز للتعبير عنه . وربما لام غيرهم من العلماء الذين يأخذون كلامهم على ظاهره ويحكمون عليهم بأحكام في نظرهم باطلة . ومن شعره في هذا قوله (1) :

(1) ابن عربي ، الديوان ، ص 151

الشرع شرعان ؛ شرع الرسل والحكما
عند الإله فإنّ الله قرّره
إنّ الإله هو الموحى بذاك إلى
ألقاه في القلب من حكم ومن حكم
وليس يدرون أنّ الله أعلمهم
لأنّهم جهلوا ما نحن نعلمه
فنحن أسعد منهم في قيامتنا
روحا وقد غدرت بهم مواكبهم
فنحن أعلم ما قالوه واعتقدوا
ونحن أهل شهود في طريقنا
وكله فهو مرعي لمن فهما
شرعا قويا لمن يدري إذا علما
قلوبهم وهم لا يشعرون بما
لأنّهم زعموا بأنّهم علما
كذا أتتنا به مقالة القدا
من الإله الذي بالحقّ قد حكما
ويزعمون غدا بأنّهم زعما
فهم وإن سعدوا لم يفقدوا ندما
وما رأينا لهم في علمنا قدما
وهم بأفكارهم في حيرة وعمى

فالصّوفية إذن لم يجدوا طريقا يعبرون به عن خفايا عالم الغيب المجهول الذي كشفت لهم الأستار عنه ، وحالات الوجد التي عاشوها إلا اللجوء إلى الرمز ، وتقديم ما عرفوا بصور من عالم الناس المشهود والمحسوس . ومن هذه المحسوسات : المرأة والخمر والطبيعة والحيوانات ، سعيّا منهم للكشف عن هذه المعاني وتقريبها لفهوم الناس وإدراكهم.
أولا : المرأة :

اتّخذ الصّوفية الذين عرفوا بشعرهم في الحب الإلهي المرأة رمزا للتعبير عن هذا الحب وذلك للأسباب التالية :

1- المرأة هي رمز الجمال الحسي والروحي ، وهو ما دفع كثيرا من الشعراء للتغنّي بهذا الجمال والسّعي وراءه والإحساس بالسكينة وهو يصل إليه .

2- إنّ التعبير عن الأحاسيس والتغزّل يظهر بصورة جليّة في المرأة . وقد تغزّل بها الرجل على مرّ العصور، فكان أحيانا متعفّفا ، فجاء شعره نسيبا أو ما يعرف بالغزل العذري ، وأحيانا أخرى يكون وصفه حسيا وقد يجسّد من خلاله مفاتن المرأة فيأتي تشبيها .

3 - إنّ مشاعر الحب والعشق والهيام تكون للمرأة وبها ، وفيها تتجلى . وقد شغل كثير من الشعراء في شعرهم بهذا ، بل إنّ منهم من لم يعرف إلا بالغزل ولقّب بمن أحب

كمجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة ... فهاموا بهن ، وبلغ بمجنون ليلى أن تعلق بها فلم يعد في قلبه سواها ، وعشقها حتى جن بعشقها ولذلك لقب بالمجنون.

ولأن الصوفي أحب ربه حبًا خالف فيه غيره ، فلا مكان في قلبه سوى لمحبوبه (الله) ، وقد نقل عن بعضهم أن من الشرك اجتماع حب الله وحب غيره في قلب المرء ، فقد اتخذ المرأة رمزاً لإبراز هذا الحب والعشق . وكذلك هو يرى جمال ربه في جمال خلقه خاصة عند معتقدي وحدة الوجود والاتحاد . فلا عجب أن نجد الصوفي يستعمل أسماء النساء ، ويصف لواجع الحب ولهيب الشوق ، والتودد للمحبيب حتى يرضى . وكل ذلك في شعر ظاهره التغزل بالنساء ، وباطنه تجسيد للحب الإلهي الذي ملأ قلبه ، وأخذه بكاه ، فلم يعد يجد مكاناً فيه لغير ربه مثلما أن العاشق الولهان يهيم بمن أحب حتى يبلغ حد الجنون . ومن أمثلة هذا النوع من الشعر قول ابن الفارض وهو الملقب بسُلطان العاشقين⁽¹⁾ :

أَبْرُقُ ، بدا من جانبِ العُورِ ، لامعُ ، أم ارتفعتُ ، عن وجه ليلى ، البراقعُ
أنازُ الغضا ضاءتُ وسلمى بذى الغا أم ابتسمتُ عمًا حكتهُ المدامعُ
أنشُرُ خزامي فاح أم عرفُ حاجرٍ بأَمِّ القُرى ، أم عطرُ عزة ضائعُ
ألا ليت شعري هل سلمي مقيمة بوادي الحمى ، حيثُ المنيّمُ والُعُ

نلاحظ الشاعر وهو يعدد أسماء النساء ، وهن كلهن من المعشوقات اللاتي خلد محبوهن أسماءهن من خلال التغزل بهن . فهن رمز للحب العذري التابع من هيام وعشق . وكان كل شاعر يبت محبوبته ما يجد في قلبه من عواطف حب سامية . وحين يستعمل الصوفي هذه الأسماء إنما يعبر بها عما ترمز إليه من جمال أولاً ، وعن الحب الصادق المتعلق بها ، وإن كان الصوفي قد توسع في الحب ، وعمق معانيه الإنسانية والروحية ، وفلسفه ، ومزجه بالنظريات الفلسفية كالأفلاطونية . وحين يبت الشاعر الصوفي امرأة ما وجده ، فإنما هو في الحقيقة يعبر عما ترمز إليه من الحق والجمال والمقصود به الذات

(1) ابن الفارض ، الديوان ، ص 166

الإلهية . ولم يكتفوا باتّخاذهم أسلوباً للتعبير عنها ، بل كانوا ينشدونه في مجالس السّماع التي تضمّ عادة جمعا منهم . يقول ابن الفارض في هذه المعاني (1) :

وتظهر للعشاق في كل مظهر من اللبس في إشكال حسن بديعة
ففي مرة لبني وأخرى بثينة وآونة تدعى بعزّة عزّت
ولسن سواها لا ولكن غيرها وما إن لها، في حسنها، من شريكة
كذلك بحكم الاتّحاد بحسنها كما لي بدت في غيرها وتزيت
فهذه الأسماء (لبني ، بثينة ، عزّة ...) ما هي إلا رموز ، وإنّما المراد غيرها (الذات الإلهية) لأنّها تتجلّى في الذوات البشرية (نظرية الاتّحاد والحلول) . وإذا كان مجنون ليلي قد هام بها وزعم اتّحاده بها ، " فعندما قيل له أحب ليلي؟ قال: لا ، قيل ولم ؟ قال : لأنّ المحبّة ذريعة للوصول ، وقد سقطت الذريعة ، فليلى أنا وأنا ليلي" (2) . وهذا حال كثير من الصّوفية الذين يقولون بالاتّحاد والحلول . يقول ابن الفارض:

أوميض برق بالابريق لاحا أم في ربي نجد أرى مصباحا ؟
أم تلك ليلي العامرية أسفرت ليلا، فصيرت المساء صباحا
يا راكب الوجناء وقيت الردى وإن جبت حزنا أو طويت بطاحا
وسلكت نعمان الأراك ففج إلى واد، هناك عهدته فياحا
وإذا وصلت إلى ثنّيات اللّوى فأنشد فؤادا بالأبيطح طاحا

وفي شعر العفيف التّلمساني الكثير من هذا النوع من الغزل . وأحيانا يجمع بين الحبّ والسكر . ومن نماذج شعره كقوله (3):

(1) ابن الفارض ، الديوان ، ص70

(2) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري [ت: 406هـ] ، عقلاء المجانين

تح. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، 1405 هـ - 1985 م ،

ص51

(3) عفيف الدين التّلمساني ، الديوان ، تح. يوسف زيدان ، دار الشروق ، ص133

نُفُوسٌ نَفِيسَاتٌ إِلَى الْقُرْبِ حَنَّتِ فَلَمَّا سَقَاهَا الْحُبُّ بِالْكَأْسِ جُنَّتِ
وَكَانَتْ تَمَنَّتْ أَنْ تَمُوتَ صَبَابَةً فَسَاقَ إِلَيْهَا الْوَجْدُ مَا قَدْ تَمَنَّتِ
وَفِي الْحَيِّ هَيْفَاءُ الْمَعَاطِفِ لَوْ بَدَتْ عَلَى الْبَانَ كَانَ الْوُزُقُ فِيهَا تَعَنَّتِ
عَجِبْتُ لَهَا فِي حُسْنِهَا إِذْ تَقَرَّدَتْ لِأَيَّةِ مَعْنَى بَعْدَهَا قَدْ تَنَّتِ
شَكَ سُقْمَهُ مُضْنَى هَوَاهَا صَبَابَةً فَقَالَتْ لَهُ أَصْبِرْ فِي الصَّبَابَةِ أَوْ مُتْ
فَمَا عَاشَ إِلَّا مُعْزَمٌ مَاتَ فِي الْهَوَى بِحُبِّي وَهَذَا فِي الْمُحِبِّينَ سُنَّتِي

فهو يربط بين الحب والخمر بالمعنى الصوفي ، ويشير إلى ما تعانيه النفوس النفيسة وهي تسعى إلى الوصل ، فإن هي وصلت عانت من شدة الوصل وما عليها إلا أن تصبر لذلك . ويواصل في بيان أثر خمرة الصوفي (السكر بحب الذات الإلهية) التي إن شربها صحا وهو في الحضرة الإلهية ، وسكر مع الناس بغيبته عنهم وإن كان بينهم . وهو يشير بالقهوة هنا إلى الخمرة ، فيقول (1)

سَتَاتِيكَ مِنِّي قَهْوَةٌ إِنْ شَرِبْتَهَا صَحَوْتُ وَفِي صَحْوِ الْهَوَى كُلِّ سَكْرَتِي
فَلَا تَمَزِجْنَهَا فَهِيَ بِالْمَرْجِ حُرِمَتْ وَلَوْ جُلَيْتَ صِرْفًا عَلَيْهِمْ لَحَلَّتِ
فَإِنْ هِيَ قَدْ أَفْنَتَكَ سُكْرًا فَعِجِبْ بِهَا فَمَنْ صَرَفْتَهُ الصِّرْفُ بِالنَّفْيِ يَبُتْ

وفي قصيدة أخرى يخاطب محبوبه بأن يروي قلبه من حبه ، ويشير إلى أنه لا يستطيع الإفصاح عن اسمه هيبه منه رغم ما يعانيه من آلام الحب في حال كتمه فيقول (2) :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تَرَوِي قُلَيْبَ مُتَمِّمٍ تَفِيضُ أَمَاقِي جَفْنِهِ وَهُوَ يَظْمَأُ
أَصَابَتُهُ عَيْنٌ أَغْمَدَتْ نَضْلَ فَضْلِهِ وَقَلْبُ الْهَوَى مَنْ كَانَ قَلْبٌ مُرْزَأُ
أَحِبُّ حَبِيبًا لَا أَسْمِيهِ هَيْبَةً وَكُتْمُ الْهَوَى لِلْقَلْبِ أَنْكِي وَأَنْكَأُ
أَخَافَ عَلَيْهِ مِنْ هَوَايَ فَكَيْفَ لَا أَعَارُ عَلَيْهِ مِنْ سِوَايَ وَأَبْرَأُ

وكم يكابد في حبه ، ولا يجد من وسيلة وهو يرى محبوبه بقلبه إلا الرجاء في أن ينال وصله ، ويرضى عنه وهو يؤدي ما عليه تجاهه . يقول في القصيدة نفسها :

أَبِيْتُ أَعَانِي فِيهِ حَرَّ جَوَانِحِي وَبَيْنَ جُفُونِي مَدْمَعٌ لَيْسَ يَرْقَأُ

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه . ، ص 70 ، 71

أَرَاهُ بِقَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ وَرْدِ الْوَصَالِ أَحْلَأُ
أَتَانِي كِتَابٌ مِنْهُ فُؤْتُ بِحَقِّهِ فَهِيَ أَنَا أَبْكِي مَا اسْتَطَعْتُ وَأَقْرَأُ
أَتَانِي هَوَاهُ مِلءُ سَمْعِي وَنَاطِرِي وَقَلْبِي فَمَالِي مِنْهُ مَلْجَأٌ وَمَنْجَأٌ

وفي الأخير يسأل محبوبه أن يرزقه ولو يوما من وصال يميني به نفسه بنيل مرضاة ربّه ،
فيقول :

أَغْنِنِي بِيَوْمٍ مِنْ لِقَائِكَ وَاحِدٍ فَإِنِّي بِيَوْمٍ مِنْ لِقَائِكَ أَجْزَأُ
أَغَالِطُ نَفْسِي مِنْكَ بِالْوَصْلِ وَالرِّضَى وَمَنْ لِي بِهِ وَهَوَ النَّعِيمُ الْمَهْنَأُ

ثانيا: الخمر :

تعاطى العرب الخمر منذ القدم ، وعاقروها في جاهليتهم كما لم يعاقروها غيرهم ، ولعلّ
هذا سبب تدرّج القرآن في تحريمها . وقد اشتهر بها من الشعراء الأعشى مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ .
إذ يروى أنّه عزم على الدّخول في الإسلام ، ورحل لملاقة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ،
وقبل أن يصل إلى المدينة قابلته قريش ، وأخبرته بما جاء به الإسلام من واجبات على
المسلم ، وبما حرّمه من أمور فكأنّه تقبلها إلى أن حدّثوه بأنّه يحرم الخمر ، ولشدة حبّه
للخمر قرّر أن يؤجّل إسلامه للعام التّالي ، حتّى يشبع منها ، وفي طريق عودته سقط من
على ناقته فمات وهو على الكفر . فكان الندماء يجتمعون للشّراب على قبره ، فإذا جاء
دوره سكبوا نصيبه على قبره لترتوي عظامه من الخمر ، فظل قبره نديا ، وعلى لسان أحد
هؤلاء النّدمان كتبت قصيدة منها .

عَرَفْنَاكَ يَا أَعْشَى بِعَشْقِكَ لِلْخَمْرِ فَهَلْ جِدْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ عَنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ
عَهْدُنَاكَ يَا مَيْمُونُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَفِيَّ لَهَا فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

وإذا كان العرب ممّن عاقروا الخمر في جاهليتهم ، فإنّهم لم يكثروا في وصفها مثلما فعل
بعض الشعراء في العصر العباسي كأبي نواس شاعر الخمریات . الذي تغنن في وصفها
وذلك لعشقه لها . بل إنّه يجعلها الداء والدواء فيقول⁽¹⁾ :

(1) أبو نواس ، الديوان ، ج1ص29

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

وإذا كان هذا المعنى قد سبقه إليه الأعشى حين قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

فإن أبا نواس يذهب في وصفها مذاهب حتى أنه أحيانا يبدو وكأنه يصف امرأة . كما أنه يراها السعادة ، فحيث تكون لا يكون الهمّ والحزن يقول في ذلك⁽¹⁾ :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسّها حجرٌ مسّته سراءُ

فنشوته وقمة سعادته حين يشربها ويسري فيه مفعولها . وقد زاد بعض شعراء الأندلس على ذلك الربط بين الخمر والنساء والطبيعة ، وتتداخل الأوصاف أحيانا حتى لا يدرى هل الشاعر يشبه الخمر بالمرأة ، أم هو يشبه المرأة بالخمر ، وكذلك مع الطبيعة . وكل هذا لأنه ينتشي ويسعد حين يكون مع واحدة من الثلاثة . ولعلّ بعض الشعراء كانوا يعاقرونها نشدانا لعالم جميل وهروبا من الواقع الأليم .

وإذا كان شارب الخمر يتخذها ملجأ يفرّ إليه من متاعب الحياة ، فإنّ الصوفي يسكر بها ويصحو في الوقت نفسه . فهو من ناحية يغيب عن واقعه فتقطع علائقه بالخلائق ، ومن ناحية أخرى يصحو حينما يجد نفسه في الحضرة الإلهية أمام الخالق . والمقصود بالخمرة عند الصوفية هي الشرب من حبّ الله حدّ الثمالة ، وساعتها سيجد من شربها نشوة ولذة كالتّي في الخمر الأخرى بالنسبة لشاربيها . فمتعاطيها ينتشي بها ولا يجد فيها الإثم والعار ، بل الإثم في تركها . فليس لها إذن من هذه الخمرة إلا الاسم . يقول ابن الفارض :

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مُدَامَةً سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ

لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يُديرها هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجتُ نجم

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانها ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ

ولم يُبقِ منها الدهرُ غيرَ حُشاشةٍ كأنّ خفاها في صدور النّهي كتم

فإن نُكرتُ في الحيّ أصبحَ أهلهُ نساوى ولا عارٌ عليهم ولا إثم

ومن بين أحشاء الدنان تصاعدتُ ولم يُبقِ منها في الحقيقة إلا اسمُ

(1) المصدر نفسه

وخمير الصوفي لها أثر في كل شيء ، يقول ابن الفارض أيضا :

وإن حَطَرْتُ يوماً على خاطرِ امرئٍ
ولو نَظَرَ النُّذْمَانُ حَتَمَ إِنَائِهَا
لأَسْكِرُهُمْ من دونِها ذلكَ الختمَ
ولو نَضَحُوا منها ثرى قَبْرِ مَيِّتٍ
لَعَادَتْ إليه الرُّوحُ وانتَعَشَ الجسمَ
ولو طَرَحُوا في فيءِ حَائِطِ كَرْمِهَا
ولو قَرَّبُوا من حَائِهَا مُقْعَدًا مَشَى
ولو عَبَقَتْ في الشرقِ أنفاسُ طِيبِهَا
ولو خُضِبَتْ من كأسِهَا كَفٌّ لَامِسٍ
ولو جُلِيَتْ سِرًّا على أَكْمِهِ غَدَا
ولو أن رَكْبًا يَمَمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا
ولو رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا على
وفوقِ لِيَاءِ الجَيْشِ لو رُقِمَ اسْمُهَا
تُهَدَّبُ أخلاقُ النَّدَامِي فيهِتَدِي
ويكْرُمُ مَنْ لم يَعْرِفِ الجودَ كَفُّهُ
ويحْلُمُ عند الغيظِ مَنْ لا لَهُ حِلْمُ

ويصف ابن الفارض ماهية خميره ويحاول مقارنتها بالخمير الحقيقية فلا يجد بينهما

من مشترك سوى الاسم . ثم يلّمح لها بأنها الذات الإلهية التي اتحد بها كما يقول:

يقولون لي صِفْهَا فَأَنْتَ بَوَصَفِهَا
صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَاءٌ
خَيْرٌ أَجَلٌ عِنْدِي بِأوصافِهَا عِلْمُ
نَوْرٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ
تَقَدَّمَ كُلُّ الكائِنَاتِ حَديثُهَا
قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ
وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةِ
بِهَا احتَجَبَتْ عن كُلِّ مَنْ لا لَهُ فَهْمُ
وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَارَجاتُ
تِحَادًا وَلَا جِرْمٌ تَخَلَّاهُ جِرْمُ
فَحَمْرٌ وَلَا كَرْمٌ وَأَدَمٌ لِي أَبُ
وَكَرْمٌ وَلَا حَمْرٌ وَلِي أُمُّهَا أُمُّ
وَلُطْفُ الأواني في الحَقِيقَةِ تابعُ
لِلطُّفِ المعاني والمَعاني بِهَا تَنَمُّو
وقد وَقَعَ التَفْرِيقُ وَالكُلُّ واحدُ
فأرواحنا حَمْرٌ وَأشباحتنا كَرْمُ

ولا قبلها قبل ولا بعدَ بَعْدَهَا وَقَبْلِيَّةُ الأَبْعَادِ فَهِيَ لَهَا حَتْمٌ
وعَصْرُ المَدَى من قَبْلِهِ كان عَصْرَهَا وَعَهْدُ أَيْنَا بَعْدَهَا وَلَهَا اليْتِم
محاسِنُ تَهْدِي المادِحِينَ لَوْصَفِهَا فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ النَّثْرُ والنَّظْمُ
ويَطْرَبُ مَنْ لم يَدْرِهَا عندَ ذِكْرِهَا كَمَشْتاقِ نُعْمٍ كَلِّمَ ذُكْرَتْ نُعْمُ
ولا يجد حرجا في الإعلان بشربها لأنَّ الإثم في تركها لا في شربها ، والعيش في
إدمانها ، يقول ابن الفارض :

وقالوا شَرِبْتَ الإِثْمَ كَلًّا وإِثْمًا شَرِبْتُ التي في تركها عندي الإِثْمُ
فلا عَيْشَ في الدُّنْيَا لِمَنْ عاشَ صاحِباً وَمَنْ لم يَمُتْ سَكْرًا بها فاته الحزم
على نفسه فليَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمُرُهُ وليسَ لَهُ فِيها نَصيبٌ ولا سَهْمُ

ثالثا : الطبيعة

إن من نظريات الفلسفة الصّوفية وحدة الوجود التي يرى أصحابها بأنَّ الله يتجلى من
خلالها . فجمالها هو جماله ، فكأنها مرآة عاكسة لهذا الجمال . وكما جعلوا المرأة والخمر
رمزين في شعرهم ، فإنهم أخذوا من الطبيعة أشياء كثيرة ورمزوا بها . ومن هذه الرموز
الطير والحيوان والكواكب ولأنهار إلخ ... سأكتفي بإيراد نموذجين من هذه الرموز :

(1) الطير:

رمزوا بها إلى النفس البشرية المحلّقة في العلياء ، أو الروح حين تفارق الجسد الذي
عاشت فيه . وقد تكون مصاحبة لأجواء الغزل كما في شعر العفيف التلمساني .

وصادحة صدحت ليلىها وقد وصلته بضوء النهار
فنادمتها في كؤوس الهوى وقد مزجت بالدموع الغزار
فتتدب في ضيق أفاصها وأندب من لوعة وانكسار
فلي شجني ولها شجوها فأشكو الأسي وهي تشكو الأسار
تذكرني بالهديل البكا وأنكرها بالحنين الديار
ولا وقت إلا ولي ولها هوى كامن أو جوى ذو ادخار

هذه الحمامة الأسيرة في قفصها والتي مزجت ليها بنهارها وهي تصدح ، تشكو ضيق أقفاسها والأسر وترجو أن تحلّق حرّة ، هي شبيهة بنفسية الصّوفي الذي يبتغي تحرير نفسه من أسار شهواتها .

(2) الظبي :

وظف الشاعر العربي الغزال منذ القديم في الإشارة إلى المرأة الجميلة وكثيرا ما شبّه الشّاعر المرأة التي أعجب بها بالغزال والمها والظبي ... لما تمثّله هذه الحيوانات من رقة وجمال مثير لإعجاب الناظرين . وكذلك فعل الشّاعر الصّوفي . يقول العفيف التلمساني (1) :

وظبي فلاة أنس فكأنه لرأيه عند الالتفات شرود
ترقرق ماء الحسن في وجناته وليس لظمان إليه ورود
ألا هل إلى عصر الصبا لي عودة وهيئات ما قد فات ليس يعود
فقد أخذ الشّاعر من الظبي الجمال والشرود وأشار بهما إلى ما يذهب من الإنسان ولا يعود إليه .

(1) العفيف التلمساني ، الديوان ، ص205

أعلام الأدب الصوفي العرفاني (الفلسفة الصوفية)

برز في هذه المرحلة كثير من الصوفية الأدباء الذين حملوا أفكارا فلسفية جُلّها لم يألّفه من كان قبلهم ، سواء ممّن تسموا بالصوفية أم غيرهم . وقد لاقت هذه الأفكار معارضة حتّى من الصوفية أنفسهم ، كفكرة الاتحاد والحلول التي حملها الحلاج وبقي مدافعا عنها حتّى إعدامه . وفكرة وحدة الوجود التي كان ابن عربي رائدها وتضمنته كل مؤلفاته ما كان شعرا منها أو نثرا. وهذه ترجمات لبعضهم.

أولا : الحلاج

وهو أبو مغيث الحسين بن منصور، وكنيته أيضا أبو عبد الله . من أهل بيضاء فارس. ونشأ بواسط ، والعراق. وكان جدّه مجوسيا اسمه محمي الصوفي. نشأ بتستر، فصحب سهل بن عبد الله التستري . و صحب ببغداد الجنيد وأبا الحسين النوري، وعمرو بن عثمان المكي وغيرهم . وأكثر الترحال والأسفار والمجاهدة (1).

واختلف في أمره بين الصوفية وكذلك بين خصومه وأتباعه . فقد ردّه أكثر المشايخ ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم في التصوّف . وقبله بعضهم ، وأثنوا عليه ، وصحّوا له حاله ، وحكوا عنه كلامه ، وجعلوه أحد المحقّقين ، حتّى قال محمد بن خفيف: " الحسين بن منصور عالم رباني". ومن النّاس من يبالغ في تعظيمه خاصة (الأتباع)، ومنهم من يكفّره (الخصوم). كتب أبو حامد الغزالي فصلا طويلا في كتابه مشكاة الأنوار في حاله . وقد اعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عنه مثل قوله " أنا الحقّ " وقوله " ما في الجبّة إلا

(1) (2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2ص141 .

الله ". وهذه الإطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها ، وحملها كلها على محامل حسنة، وأولها ، وقال: هذا من فرط المحبة وشدة الوجد، وجعل هذا مثل قول القائل (1) :

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ زُوحَانَ حَلَّلْنَا بَدْنَا
فَإِذَا أَنْبَصَرْتَنِي أَنْبَصَرْتَهُ وَإِذَا أَنْبَصَرْتَهُ أَنْبَصَرْتَنَا

وكان ابتداء حاله على ما ذكره ابن الأثير في تاريخه يظهر الزهد والتصوّف والكرامات ، ويُخْرِجُ لِلنَّاسِ فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، ويمدّ يده إلى الهواء ويعيدها مملوءة دراهم مكتوب عليها: قل هو الله أحد ، ويسمّيها دراهم القدرة ، ويخبر النَّاسَ بما يأكلون وما يصنعون في بيوتهم ، ويتكلم بما في ضمائر النَّاسِ ، فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول . وتبرأ منه سائر الصّوفية والمشايخ والعلماء لما ظهر من سوء سيرته ومروقه . ومنهم من نسبه إلى الحلول ، ومنهم من نسبه إلى الزندقة ، وإلى الشعبذة ، وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال، وانتلوه وروّجوا به على الجهّال(2).

والذين يعظّمونه اختلفوا فيه أيضا ؛ فمن قائل إنّه حلّ فيه جزء إلهي ويدّعي فيه الربوبية. ومن قائل إنّه ولي الله تعالى ، وأنّ الذي يظهر منه من جملة كرامات الصّالحين. ومن قائل أنّه مستغش وشاعر كذاب ومتكهن ، والجنّ تطيعه فتأتيه بالفاكهة بغير أوانها.(3) وكان الحلاج قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ، ووافق على حيلة يعملها.

(1) البيتان للحلاج نفسه . ينظر : كامل مصطفى الشيبني ، شرح ديوان الحلاج ، ص343.

(2) ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2ص141 .

(3) ينظر : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي [ت:412هـ]، طبقات الصوفية ، تح. مصطفى عبد القادر عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت1419هـ/ 1998م ، ص236 . ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري [ت: 804هـ] طبقات الأولياء ، ط2، نور الدين شريبه من علماء الأزهر ، مكتبة الخانجي، بالقاهرة ، 1415 هـ - 1994 م ، ص187.

فخرج الرجل فأقام عندهم سنتين يظهر النسك والعبادة وقراءة القرآن والصوم ، فغلب على البلد حتى إذا تمكّن أظهر أنّه عمي فكان يقاد إلى مسجده ويتعمى في كلّ أحد شهوراً . ثمّ أظهر أنّه زَمِنٌ⁽¹⁾ فكان يحبو ويحمل إلى مسجد النبي ﷺ في النوم ، يقول أنّه يطرق هذا البلد عبد صالح مجاب الدعوة تكون عافيتك على يديه ودعائه ، فاطلبوا لي كل من يجتاز من الفقراء أو من الصّوفية لعلّ الله تعالى أن يفرج عني ، فتعلّقت النفوس لورود العبد الصّالح ، ومضى الجيل الذي بينه وبين الحلاج فقدم البلد ، ولبس ثياب الصّوف الرقاق ، وتقرّد في الجامع فقال الأعمى: احملوني إليه ، فلما حصل عنده ، وعلم أنّه الحلاج قال له: يا عبد الله رأيت في النوم كذا وكذا فادع الله تعالى لي، فقال: ومن أنا وما تحكي؟ ثمّ دعا له ومسح يده عليه ، فقام مبصراً صحيحاً ، فانقلب البلد وكثر الناس على الحلاج ، فتركهم وخرج من البلد ، وأقام المتعافي المبرأ ممّا فيه شهوراً ، ثمّ قال لهم: إنّ من حق الله عندي وردّه جوارحي علي أن أنفرد بالعبادة انفراداً أكثر من هذا ، وأن يكون مقامي في الغزو، وقد عملت على الخروج إلى طرسوس، فمن كانت له حاجة يحملها. فأخرج هذا ألف درهم وقال: اغز بهذه عني، واخرج هذا مائة دينار وقال: اخرج بها غزاة من هناك، وأعطاه كل أحد شيئاً فاجتمع له ألوف الدنانير والدرهم، فلحق بالحلاج وقاسمه عليها.⁽²⁾

وأخبر ابنه أحمد بن الحسين بن منصور: ... ونشأ بتستر وتلمذ لسهل بن عبد الله التستري سنتين ثمّ صعد إلى بغداد وكان بالأوقات يلبس المسوح ، وبالأوقات يمشي

(1) زَمِنٌ انْقَطَعَ مَشْيُهُ فَأَنْقَطَعَ أَثَرُهُ. ينظر: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي [ت: 711هـ] لسان العرب، ط3، دار صادر ، بيروت 1414 هـ ، ج4ص6
(2) ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج2ص141 وما بعده

بخرقتين مصبغ ويلبس بالأوقات الدراعة والعمامة ويمشي بالقباء أيضا على زي الجند ، وأول ما سافر من تستر إلى البصرة كان له ثمان عشرة سنة ، ثم خرج بخرقتين إلى عمرو بن عثمان المكي والى الجنيد بن محمد وأقام مع عمرو المكي ثمانية عشر شهرا ثم تزوج بوالدتي أمّ الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع وتغير عمرو بن عثمان من تزويجه وجرى بين عمرو وبين أبي يعقوب وحشة عظيمة بذلك السبب ثم اختلف والدي إلى الجنيد بن محمد وعرض عليه ما فيه من الأذية لأجل ما يجري بين أبي يعقوب وبين عمرو فأمره بالسكون والمراعاة فصبر على ذلك مدة ثم خرج إلى مكة وجاور سنة ورجع.⁽¹⁾

واختلفوا في تسميته الحلاج فقيل: إنّ أباه كان حلاجاً⁽²⁾ وقيل: إنّه تكلم على الناس وعلى ما في قلوبهم فقالوا: هذا حلاج الأسرار وقيل: إنّه مرّ على حلاج ، فبعثه في شغل له ، فلما عاد الرجل وجده قد حلج كل قطن في الدكان . وقد دخل الحلاج الهند وأكثر الأسفار وجاور بمكة سنين ، ثم وقع له أمور يطول شرحها ، وتكلم في اعتقاده بأقوال كثيرة حتّى اتفقوا على زندقته والله أعلم بحاله . وكان قد حبس في سنة إحدى وثلاثمائة فأخرج في هذه السنة من الحبس في يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة وقيل: لست بقين منه فضرب ألف سوط ثم قطعت أربعته ثم حز رأسه وأحرقت جثته ونصب رأسه على الجسر أياما ثم أرسل إلى خراسان فطيف به⁽³⁾.

(1) ينظر: ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تاريخ بغداد ، ج8ص112

(2) حَلَجَ الْقُطْنُ يَحْلُجُهُ وَيَحْلُجُهُ حَلَجًا: نَدَفَهُ. وَالْمِخْلَاجُ: الَّذِي يُحْلَجُ بِهِ. وَالْمِخْلَجُ وَالْمِخْلَجَةُ: الَّذِي يُحْلَجُ عَلَيْهِ وَهِيَ الْخَشْبَةُ أَوْ الْحَجْرُ، وَالْجَمْعُ مَحَالِجٌ وَمَحَالِيجٌ وَقُطْنٌ حَلِيجٌ: مَدْدُوفٌ مُسْتَحْرَجُ الْحَبِّ، وَصَانِعُ ذَلِكَ: الْحَلَّاجُ، وَجِرْفَتُهُ الْجَلَّاجَةُ.

ينظر: ابن منظور الأنصاري ، لسان العرب، ج2ص225

(3) ابن خلكان ، ج2ص145

اشتهر الحلاج بفلسفته القائمة على الحلول ، وكان جلّ شعره يصب في هذه الفلسفة وإن
بدا بأغراض أخرى. وبقي حتى وهو يصاب متشبّثا بها غير مبال بما يتعرض ليبيدي
لأتباعه الثّبات على فكره ، فإنّه لما قدّم للقتل ، قطعت يده اليمنى، ثمّ اليسرى، ثمّ رجله ،
فخاف أن يصفّر وجهه من رؤية الدم ، فأدنى يده المقطوعة من وجهه ، ولطّخه بالدم
ليخفي اصفراره وأنشد:

لَمْ أُسَلِّمِ النَّفْسَ لِلْأَسْقَامِ تَبْلُغُهَا إِلَّا لِعِلْمِي بَأَنَّ الْوَصْلَ يُخَيِّبُهَا
نَفْسُ الْمُحِبِّ عَلَى الْأَلَامِ صَابِرَةٌ لَعَلَّ مُسْقِمَهَا يَوْمًا يُدَاوِيهَا

فلما شيل إلى الجذع قال:

يَا مُعِينِ الضَّنَى عَلَيَّ أَعْنِي عَلَى الضَّنَى

ثم جعل يقول

مَا لِي جَفَيْتُ وَكُنْتُ لَا أَجْفَى وَدَلَائِلُ الْهَجْرَانِ لَا تَخْفَى
وَأَرَاكَ تَمْرُجُنِي وَتَشْرِبُنِي وَلَقَدْ عَهَدْتُكَ شَارِبِي صَرَفًا

فلما بلغ به الحال أخذ يقول:

لَبَيْكَ يَا عَالِمًا سِرِّي وَنَجْوَائِي لَبَيْكَ لَبَيْكَ يَا قَصْدِي وَمَعْنَائِي
أَدْعُوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي إِلَيْكَ فَهَلْ نَاجِبِيُ إِيَّاكَ أَمْ نَاجِبِيُ إِيَّائِي
حبي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائي
يا ويح روحي من روحي ويا أسفي علي مني فإنني أصل بلوائي⁽¹⁾

(1) محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمداني، بهاء الدين [ت: 1031هـ]، الكشكول ، تح. محمد عبد
الكريم النمري ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان 1418 هـ ، 1998 م ، ج2ص14

ثانيا ابن عربي

هو محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، الملقب بالشيخ الأكبر، من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري، فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة 560، قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وقرأ أيضا القراءات السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشراط القرطبي، وحدثه به عن ابن المؤلف، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف، وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب.

كما أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجًا، ولم يعد بعدها إلى الأندلس. وطاف البلاد، وسكن بلاد الروم مدة، ولقيه جماعة من العلماء والمتعبدين، وأخذوا عنه، وقال غيره: إنه قدم بغداد سنة 608هـ، وكان يومًا إليه بالفضل والمعرفة، والغالب عليه طرق أهل الحقيقة، وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف، ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز، وله أصحاب وأتباع.

وكان انتقاله من مرسية لإشبيلية سنة 568هـ، فأقام بها إلى سنة 598هـ، ثم ارتحل إلى المشرق، وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي، ودخل مصر، وأنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت عنه، فعمل بعضهم

على إراقة دمه كما أريق دم الحلاج وأشباهه. وحبس ، فسعى في خلاصه علي بن فتح
البحائي من أهل بجاية فنجا. واستقر في دمشق ، وتوفي فيها. وهو، كما يقول الذهبي:
قدوة القائلين بوحدة الوجود.

ومات بدمشق سنة 638هـ ، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن
بسفح قاسيون، وأنشدني لنفسه مؤرخاً وفاته الشيخ محمد ابن سعد الكلشني سنة 1037
حفظه الله تعالى:

إنما الحاتمي في الكون فردٌ وهو غوثٌ وسيّدٌ وإمام
كم علومٍ أتى بها من غيوبٍ من بحار التوحيد يا مستهام
إن سألتكم متى توفي حميداً قلت أرخت: مات قطبٌ همام

وكان قد صحب الصّوفية ، وأرباب القلوب ، وسلك طريق الفقر ، وحجّ وجاور ، وكتب
في علم القوم ، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادها ، وله أشعار حسنة وكلام مليح .
اجتمعت به في دمشق في رحلتي سنة 601، فأقام بها اثني عشر يوماً، ثم دخلها ثانياً
حاجاً مع الركب سنة 608، وأنشدني لنفسه:

أيا حائراً ما بين علم وشهوة ليتّصلاً، ما بين ضدّين من وصل

ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن يرى الفضل للمسك الفتيق على الزّبل

كان ظاهريّ المذهب في العبادات، باطنيّ النظر في الاعتقادات، واتفق أنّه لما أقام ببلاد
الروم زكاه ذات يوم الملك فقال: هذا تنزلّ له الأسود ، أو كلاماً هذا معناه، فسئل عن ذلك،
فقال: خدمت بمكّة بعض الصلحاء، فقال لي يوماً: الله يذلّ لك أعزّ خلقه ، وأمر له ملك

الروم مرةً بدارٍ تساوي مائة ألف درهم، فلما نزلها وأقام بها مرّ به في بعض الأيام سائل،

فقال له: شيء لله، فقال: ما لي غير هذه الدار، خذها لك، فتسلّمها السائل وصارت له.

وحكى المقرئ في ترجمة سيدي عمر بن الفارض - أفاض الله علينا من أنواره - أنّ

الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر يستأذنه في شرح التائية ، فقال: كتابك

المسمّى بالفتوحات المكيّة شرح لها، انتهى⁽¹⁾.

له نحو أربعمئة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية/ط) عشر مجلدات، في التصوف

وعلم النفس، و(محاضرة الأبرارومسامرة الأخيار/ط) في الأدب، مجلدان، و(ديوان شعر/ط)

أكثره في التصوف، و(فصوص الحكم/ط) و(مفاتيح الغيب/ط) و(التعريفات/ط) و(عنقاء

مغرب/ط) تصوف، و(الإسراء إلى المقام الأسرى/خ) و(التوقيعات/خ) و(أيام الشأن/خ)

و(مشاهد الأسرار)⁽²⁾

وهو صاحب فكرة وحدة الوجود ، التي يرى أصحابها أنّ الوجود كلّهُ لواحد هو الله ، أمّا

خلقه فهي موجودات يتجلّى فيها ومن خلالها الله تعالى. وفي ذلك يقول ابن عربي :

ما الكلب والخنزير إلا الهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

⁽¹⁾ شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني [ت: 1041هـ] نفع الطيب ، ج2ص162

⁽²⁾ خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي دمشقي [ت: 1396هـ]، الأعلام ، ط5 ، دار العلم

ابن الفارض

هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف؛ له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائع ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء؛ وله قصيدة مقدار ستمائة بيت على اصطلاحهم ومنهجهم ، وما أطف قوله في جملة قصيدة طويلة :

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه قول المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج⁽¹⁾

وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة(576هـ).

وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة (632هـ) ودفن من الغد بسفح المقطم، رحمه الله تعالى.

وسمعت أنه كان رجلاً صالحاً كثير الخير، على قدم التجرد، جاور بمكة، زادها الله تعالى شرفاً، زماناً. وكان حسن الصحبة محمود العشرة، أخبرني عنه بعض أصحابه أنه ترنم يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري، صاحب " المقامات " وهو:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

قال: فسمع قائلاً ولم ير شخصه وقد أنشد:

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط⁽²⁾

(1) شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج6ص590

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج3ص455

نشأ بمصر في بيت علم وورع. ولما شبّ اشتغل بفقهِ الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره. ثم حبّب إليه سلوك طريق الصوفية، فتزهد وتجرد، وجعل يأوي إلى المساجد المهجورة في خرابات القرافة (بالقاهرة) وأطراف جبل المقطم. وذهب إلى مكة في غير أشهر الحج، فكان يصلي بالحرم، ويكثر العزلة في واد بعيد عن مكة، وفي تلك الحال نظم أكثر شعره. وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عاماً، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر، وقصده الناس بالزيارة، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته. وكان جميلاً نبيلاً، حسن الهيئة والملبس، حسن الصحبة والعشرة، رقيق الطبع، فصيح العبارة، سلس القياد، سخياً جواداً. وكان أيام ارتفاع النيل يتردد إلى مسجد في " الروضة " يعرف بالمشتهى، ويحب مشاهدة البحر في المساء. وكان يعشق مطلق الجمال. ونقل المناوي عن القوصي أنه كانت للشيخ جوار بالبهنسا، يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة وهو يرقص ويتواجد، قال المناوي: " ولكل قوم مشرب، ولكل مطلب، وليس سماع الفساق كسماع سلطان العشاق " ثم قال: " واختلف في شأنه، كشأن ابن عربي، والضعيف التلمساني، والقونوي، وابن هود، وابن سبعين، وتلميذه الششتري، وابن مظفر، والصفار، من الكفر إلى القطبانية، وكثرت التصانيف من الفريقين في هذه القضية " وقال الذهبي: كان سيد شعراء عصره وشيخ " الاتحادية " وما ثم إلا زي الصوفية وإشارات مجملة، وتحت الزّي والعبارة فلسفة وأفاعي! (كذا)⁽¹⁾

وهو صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به التائية . فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح

(1) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني [ت: 852هـ]، لسان الميزان ، ط2 ، تح. دائرة المعارف النظامية بالهند ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ، لبنان ، 1390 هـ / 1971م ، ج4 ص317

الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال⁽¹⁾. وهو ناظم التائية في السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها..⁽²⁾ تُؤَقِّي ابن الفارضِ فِي جُمَادَى الْأُولَى، ثاني يوم منه بمصر. وقد جاورَ بمكة زمانا. وأنشدنا غير واحد له أنه قال عند الموت هذين البيتين لما انكشف له الغطاء:

إِنْ كَانَ مَنْزَلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ صَدَّعْتُ أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ وَتَقَّتْ نَفْسِي بِهَا زَمَانًا وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ⁽³⁾

وأورد ابن حجر أبياتا صرح فيها ابن الفارض بالاتحاد، كقوله:⁽⁴⁾

وہا أنا أبدي في اتحادي مبدأي وأنهى انتهائي في مواضع رفعتي

وفي موقفي لا بل إليّ توجهي ولكن صلاتي لي ومني كعبتي

له ديوان شعر جمعه سبطه عليّ. وشرحه كثيرون منهم حسن البوريني وعبد الغني

النابلسي. ولمحمد مصطفى حلمي " ابن الفارض والحب الإلهي " وليوحنا قمير " ابن

الفرارض " .⁽⁵⁾

(1) الذّهبي ، سير أعلام النبلاء ج22ص369

(2) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [ت: 774هـ] ، البداية والنهاية ، تح. علي شيري ، ط1 ،

دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ - 1988 م ، ج13ص167

(3) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي [ت: 748هـ]، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير

والأعلام ، تح. بشار عواد معروف ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1434 هـ - 2003 م ، ج14ص76

(4) ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان ، ج4ص318

(5) الزركلي الدمشقي، ج5ص55

أبو مدين شعيب

هو أبو مدين شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد ، شيخ أهل المغرب ، الشيخ الفقيه المحقق ، الواصل القطب ، شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد وخاصة الخلاء من فضلاء العباد، فتح الله عليه بمواهب قلبية ، وأسرار ربانية ، استفادها بالتوجه والعمل، وارتقى إلى غاية ما يؤمل. كان من أهل حصن منتوجت من عمل إشبيلية . جال وساح ، واستوطن بجاية مدة ، ثم تلمسان. كان من أهل العمل والاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك. توفي بتلمسان في نحو التسعين وخمس مئة (590هـ)، وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه.

قال الشيخ ابن العربي : إنّ الشيخ أبا مدين رحمه الله لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات . والقطبية للعارف هي منتهى مناله ، وغاية آماله . وبلغ من ورعه رضي الله عنه ، أنّه كان لا يأكل البقلة المسماة ببقلة الروم لذكر اسم الروم عليها وإضافتها إليهم . وهذا تقدّم كبير في باب التقوى ، ومثل ما ذكر، ما روي عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، أنّه كان لا يأكل البطيخ لأنّه لم يبلغه كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكله بقشره أو بغير قشره ، وهل تناوله رضا أو قطعاً أو بالفم ، ومثل ذلك ما يحكى عن المحاسبي الذي مات أبوه وترك كذا وكذا ألف درهم، فما أخذ منها شيئاً وقال: إنّ أبي كان يقول بالقدر.⁽¹⁾

(1) ينظر: أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغبريني [ت:714هـ] عنوان الذرية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح. عادل نويهض ، ط2 ، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1979 م ، ص22 - شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج21ص219 .

قال محيي الدين: كان أبو مدين يقول: من علامات صدق المرید في بدايته انقطاعه عن الخلق، وفراره، ومن علامات صدق فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، فأما قول أبي سليمان الداراني (لو وصلوا ما رجعوا) فليس بمناقض لقول أبي مدين، فإن أبا مدين عنى رجوعهم إلى إرشاد الخلق، والله أعلم⁽¹⁾.

وفي مرآة الجنان لليافعي: "الشيخ الكبير قدوة العارفين وأستاذ المحققين صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة والمقامات العلية والأحوال السنية والهمم السامية والبركات النامية والمعارف الجليلة والمواهب الجزيلة والقدم الراسخ والمنهج المحمود والباع الطويل في التصرف النافذ في الوجود والمظهر العظيم والمحل. أحد أركان هذا الشأن وأجمل الأكابر الأعيان أظهر الله على يديه عجائب الآيات ونطقه بفنون الحكم وكشف له الأسرار المغيبات ورزقه القبول العظيم التام والهيبة الوافرة في قلوب الأنام ونشر ذكره في الآفاق ، وانعقد الإجماع على فضله، واجتمع عنده جمع كثير من الفقهاء والصلحاء ، وتخرج به جماعة من أكابر المشايخ الأصفياء مثل الشيخ أبي محمد عبد الرحيم القنادي ، والشيخ أبي عبد الله القرشي ، والشيخ أبي محمد عبدالله الفارسي ، والشيخ أبي محمد صاحب الدكالي ، والشيخ أبي غانم سالم ، والشيخ أبي علي واضح ، والشيخ أبي الصبر أيوب المكناسي ، والشيخ أبي محمد عبد الواحد ، والشيخ أبي الربيع المظفري ، والشيخ أبي زيد بن هبة الله وغيرهم من العلماء . وتلمذ له خلق كثير من أهل الطريق وقال بإرادته جم غفير من أصحاب الأحوال وانتهى إليه عالم عظيم من الصلحاء ، وتأدب بين يديه

(1) شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج21ص219 .

المشايخ والعلماء ، وله كلام نفيس على لسان أهل الحقائق ، وكرامات عظام باهرات وخوارق⁽¹⁾.

وفي شجرة النور الزكية : " شيخ المشايخ وسيد العارفين وقدوة السالكين شيخ الطريقة جمع الله له علم الشريعة والحقيقة كان من الفضلاء وأعلام العلماء ومن حفاظ الحديث خصوصاً الترمذي وكان يقوم عليه وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت مناقبه شهيرة وكراماته كثيرة أخذ عن الحافظين أبي الحسن بن حرزهم وأبي الحسن بن غالب والشيخ أبي يعزى ينور المتوفى سنة 572 هـ [1176 م]، المولود سنة 438 هـ رحل للمشرق فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء وتعرف في عرفة بالقطب الرباني⁽²⁾.

وفي نيل الابتهاج : " جمع بين الشريعة والحقيقة ، وأقام هادياً وداعياً للحق ، قصدت زيارته من جميع الأقطار، وشهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره : أنه تخرّج به ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات . وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف خصوصاً مقام التوكّل ، لا يشق غباره ، ولا تجهل آثاره .

وقال التادلي: كان مبسوطاً بالقبض ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه لربّه حتّى مات وهو يقول في آخر الزمان الله الحقّ ، وكان من أعلام العلماء ، يلازم كتاب الإحياء ،

(1) الإمام أبو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان الياضي اليميني المكي [ت:768هـ] مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1417هـ - 1997م ، ج3، ص355

(2) محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف [ت:1360هـ] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، تح. عبد المجيد خيالي ، ط1 ، دار الكتب العلمية، لبنان ، 1424 هـ - 2003م ، ج1ص236 .

وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك ، فيجيب عنها في وقتها . له مجلس وعظ يتكلم فيه على الناس.

وتوجّه للمشرق وأنوار الولاية عليه ظاهرة فأخذ عن أعلام علمائها، واستفاد من زهادها وأوليائها وتعرّف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني ، فقرأ عليه بالحرم كثيرا من الحديث، وألبسه الخرقة ، وأودعه كثيرا من أسراره وحلّاه بملابس أنواره . فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، ويعده أفضل مشايخه الأكابر.

وعن بعض الأولياء قال: رأيت في النوم قائلاً يقول: قل لأبي مدين بثّ العلم ، ولا تبال ترتع غدا مع العوالي ، فإنك في مقام آدم أبي الذراري ، قال فقصصتها عليه فقال لي: عزمت على الخروج للجبال والفيافي وأبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تأمرني بالجلوس وترك العزم ، فقولك: ترتع غداً مع العوالي إشارة لحديث حلق الذكر مراتع أهل الجنة والعوالي أصحاب عليين، ومعنى قوله أبي الذراري أنه أعطى قوة النكاح ، وأمر به ، ولم يجعل له قوة على كونهم مطيعين . ونحن أعطينا العلم وأمرنا ببيته وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين.

وسئل عمّا خصّه الله به فقال: مقامي العبودية وعلومي الألوهية، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية، ملأت عظمته سري وجهري، وأضاء بنوره بري وبحري، فالمقرب من كان به عليماً، ولا يسمو إلا من أوتي قلباً سليماً يسلم من سواه، ولا يكون في الدعاء إلا ما جعل فيه مولاة، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ

مَرَّ السَّحَابُ" (1).

وسئل في مجلسه عن الحب فقال : أوله دوام الحب ، ووسطه الأُنس بالمنكور ، وأعلاه أن لا ترى سواه. (2) وله أشعار جمعت في ديوان من نماذجها :

أولاً : قال [الكامل]

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار
قد أقبلت شمس النهار بحلة خضرا وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى فتسابق الأطييار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسب الزمر الحرام مرادنا مزارنا التسبيح والأذكار
وشراينا من لطفه وغناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكأسنا كأس الكياسة والعقار وقار
فتألفوا وتطيبوا واسـتغنموا قبل الممات فدهركم غدار

(1) إشارة إلى قوله تعالى في سورة النمل: 88، وتعلمها: ﴿ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ

شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

(2) أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس [: 1036هـ]، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط ، دار الكاتب، طرابلس ، ليبيا ،

والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار

ثم الصلاة على الشفيح المصطفى ما رنمت بلغاتها الأطيار

يسلك الشيخ في هذه القصيدة مسلك الصوفية العرفانيين في اتخاذ الرمز وسيلة للتعبير

عن حالاتهم التي يعيشونها ، وقد بينها في الأبيات الأخيرة بعد أن رمز إليها في البداية ،

ولعلّه خشي أن يحمل كلامه على غير مراده فراح يبين ما المراد بالمزمار وما العود وما

الشراب الذي ينتشي به حين يشربه ويسكر به. ويقول أيضا [الطويل]

تذلت في البلدان حين سبيتي وبت بأوجاع الهوى أنقلب

فلو كان لي قلبان عشت بواحد وأترك قلبا في هواك يعذب

ولكن لي قلبا تملكه الهوى فلا العيش يهنى لي ولا الموت أقرب

كعصفورة في كف طفل يضمها تذوق سياق الموت والطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقل يحنّ لما بها ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب

تسميت بالمجنون من آلام الهوى وصارت بي الأمثال في الحيّ تضرب

فيا معشر العشاق موتوا صاباة كما مات بالهجران قيس المعذب

إنّها مكابدة الصوفي وهو يتصل بخالقه ، فلا هو يستطيع الصبر على البعد ، ولا هو

يقدر على ما يجده وهو في حالة وصل . والنص يظهر وكأنّه لعاشق متيم بلغ به العشق

ما بلغ بقيس صاحب ليلي حين جنّ بحبها ، فلم يعد يعنيه من دنياه إلا هي .

ويقول أيضا في قصيدة يناجي فيها ربّه ، مظهرا ضعفه وحاجته إلى الله تعالى ، ومبديا

أنّه ملاذ المضطر إذا دعاه . وقد عرف عن الشيخ أنّ مقامه مقام التوكل وهذه الأبيات

تؤيد ما قيل عنه . فالإله الملتجأ، وبه العون ، ومنه طلب المغفرة ، وهو واصل من

وصله . ونلاحظ تسليمه التام لله . : [الطويل]

إليك مددت الكف في كل شدة ومنك وجدت اللطف في كل نائب
وأنت ملاذي والأنام بمعزل وهل مستحيل في الرجاء كواجب
فحقق رجائي فيك يا رب واكفني شمات عدو أو إساءة صاحب
ومن أين أخشى من عدو إساءة وسترك طاف من جميع الجوانب
فكم كربة نجيتني من غمارها وكانت شجي بين الحشا والترائب
فلا قوة عندي ولا لي حيلة سوى أن فقري لجميل المواهب
فيا ملجأ المضطر عند دعائه أغثني فقد سدت علي مزاہبي
رجاؤك رأس المال عندي وربحه وزهدي في المخلوق أركى مكاسبي
إذا عجزوا عن نفعهم في نفوسهم فتأميلهم بعض الظنون الكواذب
ويا محسنا في ما مضى أنت قادر على اللطف بي في حالي والعواقب
وإني لأرجو منك ما أنت أهله وإن كنت خطاء كثير المعائب
وصل على المختار من آل هاشم شفيع الوری عند الشدائد النوائب

وديوانه زاخر بالأشعار المتنوعة المضامين⁽¹⁾ ومنها جزء كبير في الحب الإلهي الذي

ظاهرة غزل ، كقصيدته التي يقول فيها: [الطويل]

(1) ينظر : ديوان أبي مدين شعيب الغوث [509هـ/590هـ] ، جمع وترتيب عبد القادر سعود وسليمان القرشي ، ط1 ،

تملكتموا عقلي وطرفي ومسمعي
وتيهتموني في بديع جمالكم
وأوصيتموني لا أبوح بسرکم
ولما فني صبري وقل تجلدي
أتيت لقاضي الحب قلت أحبتي
وعندي شهود للصابية والأسى
سهادي ووجدني واكتئابي ولوعتي
ومن عجب أنني أحن إليهم
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
فإن طلبوني في حقوق هواهم
وإن سجنوني في سجون جفاهم
وروحي وأحشائي وکلي بأجمعي
ولم أدر في بحر الهوى أين موضعي
فباح بما أخفي تقبي أدمعي
وفارقني نومي وحرمت مضجعي
جفوني وقالوا أنت في الحب مدعي
يزكون دعواي إذا جئت أدعي
وشوقي وسقمي واصفراري وأدمعي
وأسأل شوقا عنهم وهم معي
ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي
فإنني فقير لا علي ولا معي
دخلت عليهم بالشفيع المشفع

فهو يتلذذ بهذا الحب الذي توجه به لربه بكله (بعقله وحواسه وأحشائه ..) رغم ما يكابده

من شوق ولوعة وسهاد... ولا يستطيع كتمه وإن طلب منه ذلك لأن مدامعه تكشفه .

ويجد السلوى في شعوره بعدم أداء ما عليه نحو ربه في شفاعته المشفع النبي محمد بن عبد

الله صلى الله عليه وسلم.

خاتمة

ختاما أرجو أن أكون قدّمت لكم صورة ولو مختصرة عن الصّوفية وأدبها ، وعرّفت
ببعض أعلامها ، وحاولت تقريب بعض المفاهيم الصّوفية ، كما عرضت عليكم نماذج من
أدبهم في موضوعات مختلفة . ولمن يريد طلب المزيد فإنّي أرفقت هذه الدروس بمجموعة
من الكتب لعلّه يجد فيها بغيته .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري [ت: 804هـ] طبقات الأولياء ، ط2، نور الدين شريبه من علماء الأزهر ، مكتبة الخانجي، بالقاهرة ، 1415 هـ - 1994 م
2. ابن الفارض ، الديوان ، دار صادر ، بيروت
3. أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي [ت: 638هـ] ، شرحه أحمد بن بسج ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1416هـ/1996م
4. أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، تح. د. الحافظ عبد العليم خان ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت سنة 1407هـ
5. أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي [813هـ/874هـ] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تح. محمد حسين شمس الدين ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1413هـ/1992م
6. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي [ت: 681هـ] ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، 1414 هـ /1914م
7. أبو الفتح البستي ، الديوان ، تح درية الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1410هـ / 1989م
8. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [ت: 774هـ] ، البداية والنهاية ، تح. علي شيري ، ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، 1408 هـ - 1988م
9. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني [ت: 852هـ]، لسان الميزان ، ط2 ، تح. دائرة المعارف النظامية بالهند ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ، لبنان ، 1390 هـ / 1971م
10. أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب [ت: 406هـ] ، عقلاء المجانين ، تح. عمر الأسعد ، ط1 ، دار النفائس ، بيروت 1407هـ/1987م

11. أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري [ت:465هـ] ، الرسالة القشيرية ،
تح. خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422هـ/2001م
12. أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي [ت:
463هـ] ، تاريخ بغداد وذيوله ، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب
العلمية
13. أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري
الحنفي [ت: 380هـ] ، التعرّف لمذهب أهل التصوّف ، ط2، دار الخانجي ،
القاهرة ، 1415هـ/1994م
14. أبو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان الياضي اليمني المكي [ت:768هـ]
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل
المنصور ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1417هـ - 1997م
15. أبو عبد شمس الدين الله محمد بن أحمد الذّهبي ، سير أعلام النبلاء ، تح.
مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة
16. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي [ت:
748هـ]، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح. بشار عواد معروف ،
ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1434 هـ - 2003م
17. أبو عبد الله محمد بن سعيد بن مطيع ابن سعد [ت:230 هـ] الطبقات
الكبرى ، دار صادر بيروت
18. أبو مدين شعيب الغوث ، ديوان [509هـ/590هـ] ، جمع وترتيب عبد
القادر سعود وسليمان القريشي ، ط1 ، كتاب ناشرون ، بيروت ،
1432هـ/2011م
19. أبو نصر السراج ، اللمع ، تح. عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور ،
دار الكتب المصرية الحديثة ، 1380هـ/1960م
20. أبو نواس الحسن بن هانئ ، الديوان ، تح. ايدقالد قاغرن ، ط1 ، مطابع
مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 2006م
21. أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري
التتبكتي السوداني، أبو العباس [:1036هـ]، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، عناية

وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط ، دار الكاتب، طرابلس ، ليبيا ،
2000م

22. أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغُبَريني [ت:714هـ]

عنوان الدرّاية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية ، تح. عادل
نويهض ، ط2 ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979 م

23. أحمد بن المقرئ التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ن تح.
إحسان عباس ، ط2 ، دار صادر، بيروت ، لبنان

24. أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،
المكتبة العلمية بيروت

25. أيمن حمدي ، قاموس المصطلحات الصّوفية

26. جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي 849 - 911 هـ ، الجامع
الصغير في أحاديث البشير النذير ، ط 2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
1425هـ/2004م

27. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي [ت:597هـ]
صفة الصفة ، تح. أحمد بن علي ، دار الحديث، القاهرة، مصر ،
1421هـ/2000م

28. حسن الشرقاوي ، معجم ألفاظ الصوفية

29. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي [ت:
1396هـ]، الأعلام ، ط15 ، دار العلم للملايين مايو 2002م

30. زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله ، الدرّ المنثور في طبقات ربات
الخدور، ط1 ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر ، 1312هـ

31. صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي [ت:764هـ] الوافي
بالوفيات ، تح. أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث - بيروت،
1420هـ - 2000م

32. طرفة بن العبد ديوان ، اعتنى به حمدو طماس ، ط1 ، دار المعرفة ،
بيروت ، 1424هـ/2003م

33. عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح [ت: 1089هـ] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تح. محمود الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، ط1 ، دار ابن كثير، دمشق - بيروت ، 1406 هـ - 1986م
34. عبد الرحمن بدوي ، شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية ، ط2، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962م
35. عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت
36. عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي [ت: 1363هـ] الذخائر والعبريات (معجم ثقافي جامع)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر
37. عبد الله بن المبارك ، الديوان ، جمعه وحققه مجاهد مصطفى بهجت ، الرياض، 1432هـ
38. عبد المنعم الحفني معجم مصطلحات الصوفية
39. عفيف الدين التلمساني ، الديوان ، تح. يوسف زيدان ، دار الشروق
40. علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفى سنة 975هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، اعتنى به إسحاق الطيبي ، ط2 ، بيت الأفكار ، الأردن 2005م ، ص 1476
41. كامل مصطفى الشيبلي ، شرح ديوان الحلاج
42. محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان ، تح. محمد حامد الفقي ، ط2 ، دار المعرفة - بيروت ، 1395هـ - 1975م
43. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تح. محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط1 ، دار طوق النجاة ، 1422هـ
44. محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي [ت: 412هـ]، طبقات الصوفية ، تح. مصطفى عبد القادر عطا ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1419هـ

45. محمد بن أيدمر المستعصي [639هـ/710هـ]، الدرّ الفريد وبيت القصيد،

تح. كامل سلمان الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1436 هـ -

2015م

46. محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين [ت:

1031هـ]، الكشكول ، تح. محمد عبد الكريم النمري ، ط1 ، دار الكتب العلمية،

بيروت ، لبنان 1418 هـ ، 1998م

47. محمد بن محمد الغزالي أبو حامد [450هـ/505هـ] إحياء علوم الدين ، ط1،

دار ابن حزم ، بيروت ، 1426هـ / 2005م

48. محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو

عبد الرحمن السلمي [ت:412هـ]، طبقات الصوفية ، تح. مصطفى عبد القادر

عطا، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت1419هـ / 1998م

49. محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري

الرويفعي الإفريقي [ت: 711هـ] لسان العرب، ط3، دار صادر ، بيروت1414هـ

50. محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث

البشير النذير ، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام ، ط2 ، دار المعرفة للطباعة

والنشر ، بيروت ، 1391هـ/1972م

51. محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف [ت:1360هـ] شجرة

النور الزكية في طبقات المالكية، تح. عبد المجيد خيالي ، ط1 ، دار الكتب

العلمية، لبنان ، 1424 هـ - 2003م

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
1	تمهيد
02	مفهوم الأدب
04	مفهوم الصّوفية
08	نشأة التصوّف
10	مرحلة الزهد
19	مرحلة التصوّف السّني
27	مرحلة التصوّف العرفاني والفلسفي
31	بعض المصطلحات الصّوفية
36	الرمز في الأدب الصّوفي
49	أعلام الأدب الصّوفي العرفاني
49	الحلاج
55	ابن عربي
58	ابن الفارض
61	أبو مدين شعيب
71	قائمة المصادر والمراجع